منهاج الصوفية

للأستاذ/ حسن كامل الملطاوي

بسم الله الرحمن الرحيم

إن أكرمكم عند الله أتقاكم .

(قرآن كريم)

ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون .

(قرآن كريم)

لاتزال طائفة من أمتى قائمة على الحق ، لايضرهم من خذلهم ولا من خالفهم ، حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون .

(حديث شريف)

مقدمة

الحمد لله الذى حبب الينا الايمان وزينه فى قلوبنا ، والصلاة والسلام التامان المباركان على مولانا رسول الله ، الذى أرسله الله شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا ورضى الله عن آله وصحبه ، الذين آمنوا بالله ورسوله واتبعوا النور الذى أنزل معه ، أولئك هم المتقون ، ورضى الله عمن سار على منهاجهم ممن سبقت لهم من الله الحسنى ، وألزمهم كلمة التقوى فعاشوا بأبدان أرواحها معلقة بالملأ الأعلى ، فكانوا خلفاء الله فى أرضه ، والدعاة لدينه ، وآتاهم من فضله النور الذى يمشون به فى الناس ، فاستعانوا بالله ، وأعانوا الله ، وأثمرت دعوتهم أطيب الثمرات ، ولله فى خلقه آيات بينات يقوى بها اليقين ، فيصل بنعمته الدين ، ويشرق نوره ، ويمتد الى ما شاء الله له من آفاق .

وهؤلاء الائمة ، هم السابقون بالخيرات ، وهم فى صلتهم بالله أهل علم وعمل وجهاد وذوق وشوق ، فكم من علم لم يعمل به ، وكم من جهاد مشوب بعلة ، وكم من ذوق فى سقم ، وكم من شوق بالتمنى .

وأيـــن ذلـــك مـــن حـــب أولئـــك الائمـــة الاتقيـــاء الأصـــفياء ، الـــذى ارتكـــز لـــى فـــى أوتـــار أرومتـــه ، وعـــزف علـــى قيثـــارة المشـــاعر ، فأحـــدثت نبراتـه فـى قلـوبهم عاطفـة فـوارة ، فهـى جياشـة بالحركـة فـى طلـب الله ، متوثبـة بـالتطلع اليـه سبحانه ، يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، فليس لهم من دونـه راحـة أو قرار ، فشرفهم بالانتساب اليه ، وسماهم فى القرآن الكريم (عباد الرحمن) .

أضـــرم الوجـــد نـــاره بحشـــاهم ولثقـــل الغـــرام نـــاحوا ونـــاءوا

لانســـل وصـــف حـــبهم فهـــو ســـر بســـوى الـــذوق مالـــه افشـــاء

حتـــى اذا آنســـهم الله بقربـــه ، وثبـــتهم فـــى جنبـــه ، واختصـــم برحمتـه ، جعلهـم أعلامـا خفاقـة بـأنوار ولايتـه ، ليـدل الخلـق بهـم علـى مشـربهم الأصـفى ، ومـوردهم الأنقى والأبقى ، فأذاق شرابهم عشاق الحضرة من أحبابه ، فأخذوا عنهم ، وأعطوا من يليهم ، لتتوارث الدعوة المحمدية ، وهى دعوة الحق ، جيلا بعد جيل ، وهم أمان لأهل الأرض حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

فاذا طوى الله أعلامهم المنشورة ، ضل أهل الارض ، فأنكروا ربهم عتوا وكفرا ، فوقع ما حكى الله أن سيكون (حتى اذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها امرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس) ، ونعوذ بالله من الكفر وأهله .

وكانـــت امامـــة النـــاس بعـــد مولانـــا رســـول الله صـــلى الله عليـــه وســـلم للســـادة الصـــحابة ، ومـــن بعـــدهم للتـــابعين ، ومـــن بعـــدهم لتـــابعى التـــابعين ، ثـــم كانـــت للزهـــاد والعبـــاد الـــذين ظهـــروا بعـــد القـــرون الفاضـــلة الأولـــى ، ثـــم قيـــل للخـــواص المـــراعين أنفاســـهم مـــع الله (الصوفية) وذلك بعد المائة الاولى من الهجرة ، وقيل للمتشبهين بهم (المتصوفة) ، فتولوا الامامة فى تربية القلوب مع الله ، على أحكام الشريعة الغراء وآدابها ، الظاهرة والباطنة ، وقد ظهر فى الناس أدعياء فى كل جيل يدعون التصوف وهو منهم براء ،

فأصطرع الحق والباطل ، فوجب ان يتبين المسلم المنهاج الصحيح لأهل الحق من السادة الصوفية المتبعين للكتاب والسنة والجماعة ، ولا يعنينا غيرهم فى قليل أو كثير مهما ادعوا انهم صوفية (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض) .

وقد أدركت بحمد الله صِديقا من هؤلاء الأئمة الصوفية الراشدين . وأخذت عنه الطريقة الخليلية ، وهى من أصدق وأبرك طرق السادة الهادين المهتدين فى عصرنا ، وهو العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه (ساكن ضريحه الأنوار بالقاهرة ، والمتوفى سنة ١٩٤٤ وهو الآن فى ضريحه فى كفر تهرمس) طيب الله ثراه ، وهو خليفة القطب الكبير سلطان زمانه ، ومجدد قرنه سيدى الحاج محمد أبو خليل صاحب الطريقة الخليلية (ساكن ضريحه الأنواربالزقازيق والمتوفى سنة ١٩٢٠) وكان سبب تدوين هذا الكتيب ، انى ذهبت يوما لأتوضأ لصلاة المغرب ، فخطر لى بالهام من الله ، أن أخطه ، ووقع فى خاطرى أيضا أن أسميه (منهاج الصوفية) ، ولما وجدت أن فى تحقيق الخاطر عونا للناشئة على الطاعة ، ضمنته ما أستطعت من عصارة فكرى بعد تجربتى الطويلة ومطالعاتى الكبيرة ، وحاولت جاهدا أن يكون فى لغة سهلة ، ليتيسر لقارئه فهم ما غمض أو استشكل فى أمر هؤلاء الصوفية الكرام .

وانى اردت بعملى هذا وجه الله ، الذى هدانى اليه من فضله ، ولئن قصر علمى وعملى ، فأرجو أن ينفعنى الله بحسن نيتى ، ولعلى أشجع بذلك غيرى ، ممن هم أقوى منى مادة ، وأرسخ قدما فى اظهار ما عندهم فى هذا المجال الطيب ، فإن المرء قليل بنفسه كثير بإخونه ، والذكرى تنفع المؤمنين .

وأرجوا بعد ما تقدم أن أغنم دعوة بالمغفرة ، من كل من يتاح له الأطلاع على الكتيب ، والله يتولى عنى جزاء هم .

ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم .

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف الصوفية :

الصوفية ، فى أبسط تعريف وأوجزه ، هم المؤمنين حقا ، الذين أخلصوا دينهم لله ، وآثروه تعالى على ما سواه .

وقد شمل هذا التعريف عموم الصحابة والتابعيين وتابعى التابعيين رضوان الله عليهم ، وهؤلاء هم خير القرون ، كما أخبرنا مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الشريف ((خير القرون قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم)) ، ولم يلقبوا بالصوفية لأن الصحبة والتبعية كانت أزكى لهم ، اذ لا يعدلها شرف آخر .

ولما جنح الناس الى مخالطة الدنيا والميل اليها اختص المقبلون على الله باسم الزهاد والعباد ، ثم قيل لخواص المؤمنين ، الذين رفعوا همتهم عن الخلق الى الخالق ((الصوفية)) ، وعرفوا بذلك اللقب فى القرن الثانى من الهجرة النبوية .

منشأة اللقب :

واختلف فى منشأ ذلك اللقب ، هل هو منسوب الى الصفاء أو الى الصفة التى كان يقيم فيها فقراء الصحابة ، الذين كانوا يدعون

ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، أو الى الصف ، باعتبار القوم فى الصف الأول من الأتقياء ، وأرجح الأقوال عند الامام السراج صاحب كتاب ((اللمع)) أنه منسوب الى الصوف ، الذى هو غالب لباس القوم ، كما عرف الحواريون أصحاب السيد المسيح عليه الصلاة والسلام بالحوارى ، وهى الملابس البيضاء التى كانوا يلبسونها ، وقد روى عن الامام الحسن البصرى أنه قال : أدركت سبعين من أهل بدر كلهم يلبسون الصوف ، ولا يخفى ان النسبة الى الصفاء أو الصفة أو الصف ، لا يشهد لها قياس من حيث اللغة العربية .

تمسك الصوفية بالكتاب والسنة :

ولم يبتدع الصوفية جديدا فى الدين ، كما يظن بعض الناس أستنادا الى ما يأتيه من الزيغ أو المنكرات ناس يدعون أنهم صوفية ، وليسوا من الصوفية فى قليل أو كثير ، وقد اعتصم السادة الصوفية بالكتاب والسنة ، فلم يضلوا عن سواء السبيل ، ولقد قالوا بحق : لا يرتجى الوصول من لم يتابع الرسول .

وكل الذى جد من الصوفية – ونعنى بهم فى كتابنا هذا – أولئك الأتقياء ، الذين اتبعوا السلف الصالح فى العقائد ، وعملوا بفقه المجتهدين فى الأحكام ، وزينوا قلوبهم بأحوال مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتأسوا به قولا وعملا وحالا – أنهم دونوا علم التصوف ، وقعدوا قواعده ، ووضعوا مصطلحاته لمن أراد أن يتشرب مشربهم ، فيأخذ دينه بقوة العزائم ، لا بالرخص والتأويلات ، لأنهم فى جهادهم للنفس ، يهدفون الى تزكية النفوس وتعمير ظواهرهم وبواطنهم ، ليصلوا الى مقام الاحسان وهو أن تعبد الله كأنك تراه ، فأن لم تكن تراه فانه يراك ، كما جاء فى حديث مسلم المشهور .

علم التصوف علم الفيض :

وعلم التصوف ، وان كان من علوم الدين الحادثة فى الاسلام ، الا أنه يفترق عن غيره من العلوم الحادثة كالفقه والتفسير والحديث ، فى أنه يستند فى عمومه الى المذاقات الباطنة الى جانب النصوص الظاهرة ، واذا استند الى النصوص، خرجها تخريج الالهام النابع عن فيض القلوب والأرواح ، فقل انه علم الفيض ، الذى يخص الله به من يشاء من عباده ، ويعرف بالعلم اللدانى ، كما عرفه القرآن الكريم فى قوله تعالى (فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما) ، فهو اذن من كلمات الله التى لا تنفد . ويقول سيدى جعفر الصادق رضى الله عنه ((أن استنارة القلب روح العلم ، والصدق هدفه ، والالهام دليله ، والعقل مستقره ، والله موجهه)) .

ان اكرمكم عند الله أتقاكم :

والأسلام يفخر أنه يفاضل بين العباد بالتقوى ، لا بالحسب ولا بالنسب ، ولا بالجنس ، ولا باللون ، كيف والله تعالى يقول (ان أكرمكم عند الله أتقاكم) وقد جلس الفضلاء من أشراف آل البيت الى الموالى فى الصدر الاول يأخذون عنهم العلم ، ولا يخفعلى المسلمين فضل الموالى ، أمثال سادتنا نافع (مولى ابن عمر) وعكرمة (مولى ابن عباس) ، وعطاء بن رباح (مولى ابن عمر) ميسرة الفهرى) ، وابن أبى رافع (مولى الأمام على) ، ولما اعترض على سيدى الامام زين العابدين فى جلوسه الى زيد بن أسلم (من الموالى الفضلاء) ، قال : ينبغى للعلم أن يذهب اليه حيث كان .

ويدلك على ما كان للموالى بالعلم والتقوى من مكانه فى نظر الصحابة ، ما روى من أن الصحابى الجليل عبد الله بن عمر رضى

الله عنه قدم مكة ، فجمع له أهلها مسائل ، فسألوه فيها ، فقال أتجمعون لى يا أهل مكة المسائل ، وفيكم أبن أبى رباح (أى عطاء) ، وقد قال عطاء مع ما بلغه من الفضل بين الناس : أنه كان يتمنى أن لو عرف العربية أحسن مما عرف ، كى يدرك ما غاب عنه من أسرار القرآن الكريم .

وقال قرة بن خالد : كان الحسن البصرى اذا قدم عكرمة البصرة ، أمسك عن التفسير والفتيا مادام عكرمة بالبصرة ، وقد عنى سيدنا عبد الله بن عباس بتربية عكرمة ، لما رآه فيه من حسن الاستعداد ، والامام الحسن البصرى له بين أئمة الصوفية القدم المعروف ، كيف وقد تخرج على يد حذيفة بن اليمان الصحابى الجليل رضى الله عنه ، ويحدث عكرمة عن فضل الله عليه فى الالهام فيقول : انى لأخرج الى السوق ، ، فأسمع الرجل يتكلم بالكلمة ، فيفتح لى خمسون بابا من العلم وكان عكرمة يرى أن الخلق الحسن أصل الاسلام ، وعليه تبنى كل مفاخره ، وهذا ما يقول به الصوفية على الدوام .

التواضع للعلم :

والحرص على ما ينفع المؤمن فى دينه واجب ، والتواضع للعلم أوجب ، ويروى عن وكيع بن الجراح الحافظ قال : قال لى أبو حنيفة النعمان بن ثابت ، أخطأت فى خمسة أبواب من المناسك بمكة ، فعلمنيها حجام ، وذلك أنى أردت أن أحلق رأسى ، فقال لى أعراقى أنت ، قلت : نعم ، وكنت قد قلت : بكم تحلق رأسى ، فقال النسك لا يشارط فيها اجلس ، فجلست منحرفا عن القبلة ، فأومأ الى باستقبال القبلة ، وأردت أن أحلق رأسى من الجانب الأيسر ، فقال : أدر شقك الأيمن من رأسك ، فأدرته ، وجعل يحلق رأسى وأنا ساكت ، فقال لى : كبر ، فجعلت أكبر حتى قمت لأذهب ، فقال : أين تريد ، قلت : رحلى ، فقال : صل ركعتين

ثم مضى ، فقلت : ما ينبغى أن يكون هذا من مثل هذا الحجام الا ومعه علم ، فقلت من أين لك ما رأيتك أمرتنى به فقال : رأيت عطاء ابن أبى رباح يفعل هذا .

علم التصوف للخواص :

ومصطلحات الصوفية لم توضع لعامة المسلمين ، لأن التصوف لا يصلح له العوام الذين يخلدون للراحة ، ويأخذون الدين بالأخف الأيسر على النفوس ، وأنما هو علم الخواص ، لذلك لا يفهم لغتهم الا من كان منهم ، كما لا يفهم اصطلاحات الفلافسة الا من كان فيلسوفا ، وكما لا يفهم اصطلاحات الطب الا من كان طبيبا ، أو اصطلاحات الكمياء الا من كان كيماويا وهكذا ، كما أن التصوف كما يقول أهله ، ممزوج بالمرارة والغصص ، والاشتغال به يضعف الركبتين ، ويحزن القلب ، ويدمع العين ، ومما قالوا فى ذلك :

علم التصوف علم ليس يدركه الا أخو فطنة بالبر معروف

وكيف يعرفه من ليس يدركه وكيف يدرك ضوء الشمس مكفوف

والتصوف فلسفة من فلسفات العبادة ، منشؤه ايثار الله تعالى على ما سواه ، باعتبار أن العباد خلقوا لعبادته تعالى ، والآخرة خير لهم وأبقى من الدنيا التى يشتغل أكثرالناس بزخرفها الفانى ، ويقول امامنا على كرم الله وجهه (عجبت لعامردارالفناء ، وتارك دار البقاء) ، كما يقول (عجبت لمن رجا الثواب فلم يعمل ، وخاف العقاب فلم يكف) ، كما يقول فى مجاهدة النفس المجاهدة الباطنة عند الأتقياء (أنفسهم منهم فى عناء ، والناس منهم فى راحة) .

وليس مأرب الصوفية من الآخرة أن يتمتعوا بالجنة وثمراتها ، بل ليتمعوا برضوان الله ، وهم يقولون : لا ينال

غاية رضاه من فى قلبه سواه ، وقد أعدت الجنة للمتقين الذين يفوزون برضوانه ، ولا رضوان الا بمعرفته فى هذه الحياة الدنيا ولا معرفة الا بتوحيده ، ولا توحيد الا بطاعته ، ولا طاعة الا بتقواه ، ولا تقوى الا بايثاره تعالى على ما سواه ، ولا ايثار الا بمحبته تعالى ، والمحبة تقتضى ألا يسكن حنين العبد وأنينه حتى يسكن مع محبوبه ويفوز برضوانه (والذين آمنوا أشد حبا لله) .

الفرق بين الصوفية وعامة المسلمين :

وهذا هو مفترق الطرق بين الصوفية وعامة المسلمين ، فالعامة يقفون عند العبادة السطحية ، ويخلدون للحظوظ وراحة الأجساد ، ويأخذون فى الدين بالأخف الأيسر كما قدمنا، يستوى فى ذلك أهل الجهالة منهم وأهل الثقافة ، ويعتبر الصوفية أهل العلم الذين يأخذون بالأخف الأيسر : أهل غفلة ، رضوا بالأمانى ، وابتلوا بحظوظهم ، كما ذهب سيدى عمر بن الفارض رضى الله عنه فى قوله :

تعرض قوم للغرام فأعرضوا بجانبهم عن صحة فيه واعتلوا

رضوا بالأمانى وابتلوا بحظوظهم

وخاضوا بحار الحب دعوى فما ابتلوا

فهم فى السرى لم يبرحوا عن مكانهم

وما ظعنوا فى السير عنه وقد كلوا

ويرى السادة الصوفية أن العبادة السطحية لا تكفى ، لأن العبادة وسيلة للتوصل للعبودية ، فلا بد من أخذ الدين بقوة لكسب العبودية ، ومن عرف نفسه فقد عرف ربه ، ومن عرف نفسه بالعبودية عرف ربه بالربوبية ، ومن عرف نفسه بالافتقار عرف ربه بالغنى ، ومن عرف نفسه بالموت عرف ربه بالحياة .

ومن عرف نفسه بالحدوث عرف ربه بالقدم ،ومن عرف نفسه بالفناء عرف ربه بالبقاء وهكذا ، ويجب على العبد أن يعرف نفسه مذاقا الى جانب علمه وأعتقاده ، ولا يتأتى له المذاق الا بصحبة أهل المذاق ، والأخذ عنهم مقالا وحالا ، لأن التصوف يقوم على التجربة والعيان ، ولا يقوم على الدليل والبرهان ، ويقول بعض صوفية الفرس فيما ترجمه عنه الى العربية صديى العلامة الشيخ الصاوى شعلان :

اذا الورد خلت من طيب نفحتها
فلا تزاحم بها فى الارض بستانا
اذا القلوب خلت من ذكر خالقها
فهى الصخور التى تحتل أبدانا
اذا الوجوه خلت من نور سجدتها
لم تستحق غداة الموت أكفانا
اذا خلا المرء من فهم ومعرفة
ظلمت نفسك لو تدعوه انسانا

حد الاستطاعة عند الصوفية :

فأن قال البعض السادة الصوفية ان الله يقول (اتقوا الله ما أستطعتم) ، رد السادة الصوفية أن الله لم يكلفنا ما لا نستطيع ، اذ كل ما كلفنا به مستطاع ، وقد فهم أسلافنا الاستطاعة على الوجه اللائق بصلة العبد بربه ، فاذا احب العبد ربه محبة خالصة ، آثر هواة على هوى نفسه ، فجد فى طلب ربه ، حتى يكون معه فى كل نفس من الأنفاس ، لأنه خلقه لعبادته ، وكفل له رزقه الذى يحيا به جسده ، لئلا يشغله الرزق عن الرزاق فاذا انعكس الوضع ، فجد بكل الأسباب فى طلب الرزق ، ولم يتخذ الى ربه سبيلا بمثل هذه المهمة ، كانت الدنيا أحب اليه من الآخرة ،

وهذه علامة من علامات انطماس البصيرة فى العبد ، ويقول سيدى ا بن عطاء الله السكندرى فى حكمه : اجتهادك فيما ضمن لك ، وتقصيرك فيما طلب منك ، دليل على انطماس البصيرة فيك .

نظرة الصوفية الى الدنيا :

وهم ينظرون الى الدنيا على انها مجازة للآخرة كما يقول أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل :

ولم أعشق الدنيا فتلك مجازة تهيئ للأخرى وفى فوتها عرسى

وينظرون الى الاموال فى الدنيا ، على أنها نار ينتفع بها صاحبها فى حاجاته ، ويحذر شررها حتى لا يحترق بها ، فهم يجيزون كسب المال من أسبابه المشروعة ، لكنهم يجمعونه لله ، وينفقونه فى مرضاة الله ويقولون ان المال اذا جمع يجب أن يجمع للحقوق لا للحظوظ ، كما قال مولانا عثمان بن عفان رضى الله عنه : لولا انى خشيت أن يكون فى الاسلام ثلمة أسدها بهذا المال ما جمعته .

وهويقولون تبريرا لفهمهم هذا ، أن الخليفة أبا بكر الصديق رضى الله عنه خرج عن كل ماله فى سبيل الله ، وأن أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه خرج عن نصف ماله ، وأن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه كان الخرج أحب اليه من الدخل ، وأن أمير المؤمنين على كرم الله وجهه زهد فى الدنيا فلم يردها ولم ترده ، حتى أنه أوقف ما ملكت يداه فى سبيل الله ، فكانت دنياهم رضوان الله عليهم فى أكفهم لا فى قلوبهم ، وحين أفقروا فى الدنيا صبروا ، وحين أغناهم الله شكروا بالانفاق فى سبيله ، ولا يتغلب على فتنة المال الا خواص المؤمنين ، وهذا يفسر لنا قوله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : والله ما الفقر أخشى

علـيكم ولكـن أخشـى أن تفـتح علـيكم الـدنيا فتنافسـوها كمـا تنافسـها مـن قـبلكم فـتهلككم كمـا أهلكتهم .

فهؤلا الأئمة أرخصوا الدنيا حين ملكوها لهوانها عليهم ، ومـا هانـت عليـهم الا من قوة يقينـهم فى الله تعالى ، ولقد قال أميرالمؤمنين على كرم الله وجهه فى تهوين شأنها ((من هوان الدنيا على الله أنه لا يعصى ألا فيها ، ولا ينال ما عنده الابتركها))

نظرتهم الى الزهد :

وليس الزهد فى الدنيا عند السادة الصوفية هو فقر الجيوب ، بل الزهد عندهم ألا تفرح بموجود فيها ، ولا تحزن على مفقود منها ، عملا بقولـه تعالى (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) وفى تعريف آخر قالوا : ليس الزهد أن تترك الدنيا من يدك وهى فى قلبك ، بل الزهد أن تتركها من قلبك وهى فى يدك ، فقد يكون الرجل فقيرا ومتطلعا للأموال يجمعها لشهواته ، فهو ليس بزاهد ، وقد يملك المال الوفير ويكون زاهد بقلبه ، فاذا سألتهم كيف تكون الدنيا فى يد الانسان ويتركها من قلبه ، قالوا لك : أنظر الى رجل ملك الدنيا وزهد فيها مثل عمر بن عبد العزيز فقد آلت اليه الخلافة ، وكانت أموال المشارق والمغارب فى قبضته ، ورضى بعيشة الكفاف ، طلبا لمرضاة الله ، مع انه بدأ حياته أميرا وعاش فى نشأته مترفا ، لكنه حين ولى الخلافة تقشف وزهد ايثارا للآخرة الأولى .

نظرتهم الى الطيبات :

وهم لا يحرمون الطيبات ، لكنهم يحذرون أن يفتنوا بها ، فتأسرهم وتملك نفوسهم ، ولذلك لا يلتزمونها على الدوام وان استطاعوها ، بل يعودون أنفسهم على التمتع بها مرة ، والصبر

عنها مرة أخرى ، وقد رأى أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ابنه يأكل خبزا ولحما فعلاه بالدرة وقال له كل خبزا ولحما ، وخبزا وعسلا ، وخبزا قفارا ، كما أن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم نصح السيدة عائشه فقال لها : ، ((، ، ، ولا تنزعى قميصا ترقعيه .)) .

وكان أمير المؤمنين على كرم الله وجهه يوصى ألا ينخلوا له دقيقا ، ولما سئل فى ذلك قال كان رسول الله يأكل أيبس من هذا ويلبس أخشن من هذا ، فأن لم ألزم نفسى بما الزم به نفسه ، خشيت ألا ألحق به ، وكان مولانا لرسول الله صلى الله عليه وسلم يشير الى سيدنا على فيقول : خاصف النعل ، وقد وصفوا مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ملبسه فقالوا : انه كان يلبس الصوف وينتعل المخصوف .

وأنت ترى من ذلك أن السادة الصوفية يقتدون بأسلافنا الصالحين من الخلفاء الراشدين ، الذين ورثهم الله خلافة الدنيا والدين ، بحسن اقتدائهم بسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وقد غلبت روحانيتهم على حاجات أجسادهم ، فرفضوا لأجسادهم باليسر ، ولم يرضوا لأرواحهم الا بالكثير ، حتى لقد جاء فى وصية الامام على كرم الله وجهه لأبنه الامام الحسين رضى الله عنه : يا بنى ، لاتتم مروءة الرجل حتى لا يبالى أى ثوبيه لبس ، ولا أى طعاميه أكل ، كما جاء فى تلك الوصية : يا بنى ما شر بعده الجنة بشر . ولا خير بعده النار بخير . وكل نعيم دون الجنة محقور . وكل بلاء دون النار عافية .

ومع هذا ، فقد لبس بعض الأئمة المقتدى بهم الطيب من اللباس ، وأكلوا طيب الأطعمة ، حتى لقد عيب عليهم ذلك فى زمانهم فقالواللامام مالك رضى الله عنه : انك تلبس الرقاق ، وتأكل الدقاق ، فأحتج عليهم بقوله تعالى (قل من حرم زينة الله التى

أخرج لعباده) . وكان الامام أبو حنيفة رضى الله عنه ينصح أهل السعة أن يظهروا نعمة الله عليهم فيلبسون طيب اللباس ، لأن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده ، وكان الامام جعفر الصادق رضى الله عنه يلبس ما يزدان به ظاهره اذا خرج الى المسجد أو لقى الناس ، أما وراء هذا الظاهر ، فجبة غليظة قصيرة من شعر خشن تلمس جسده ، فاذا لامه أحد الناس ، كشف له عن جبته ، وأعلمه حقيقة حاله ، فكان ما أخفاه من اللباس لله ، وما أبداه للناس ، خشية ان يقعوا فى الغيبة التى نهى الله عنها ، ولأن أكثر الناس يعول على الظواهر ، وخاصة فى زماننا هذا .

ويحدث سيدى سفيان الثورى رضى الله عنه فيقول : دخلت على جعفر وعليه كساء من خز ، فجعلت أنظر اليه متعجبا ، فقال لى : يا ثورى ، مالك تنظر اليه عجبا ؟ قلت : انكم من بيت نبوة وتلبسون هذا فقال جعغر يا ثورى ، كان ذلك زمان افتقار وافقار ، وكانوا يعملون على قدر فقره وافتقاره ، وهذا زمان قد أسبل على كل شىء عزاليه (جمع عزلاء بفتح العين وهى مصب الماء من الراوية أى كثر خيرة وتتابع) .

ولئن كان امامنا على كرم الله وجهه قد تقشف فى مأكله وملبسه ، فانه قد بين لنا حكم الله فى اباحة الطيبات ، حين شكا اليه الربيع بن الحارثى ابن أخيه عاصم بن زياد قائلا ان عاصم لبس العباء . وترك الملاء ، وغم أهله ، وحزن ولده ، فقال أمير المؤمنين : ادعوا لى عاصما ، فلما أتاه عبس فى وجهه وقال له : ويحك يا عاصم ، اترى الله أباح لك اللذات وهو يكره ما أخذت منها ؟ لأنت أهون على الله من ذلك ، أو ما سمعته يقول : (مرج البحرين يلتقيان) ثم يقول (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) وقال (لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها) أما والله ان ابتذال نعم الله بانفعال أحب اليه من ابتذالها بالمقال .

وقد سمعتم . الله يقول ((واما بنعمة ربك فحدث)) وقوله ((قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق)) ان الله خاطب المؤمنين بما خاطب به المرسلين فقال : (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم) وقال : (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا) فقال عاصم فلم اختصرت يا أمير المؤمنين على لبس الخشن وأكل اليابس ؟ . فقال ان الله افترض على ائمة العدل ان يقدروا لأنفسهم بالقوام كيلا يتبيغ بالفقير فقره ، فما قام أمير المؤمنين حتى نزع عاصم العباء ولبس الملاء .

وكذلك قال سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه ، حين سئل لم لا تلبس المرقع وأنت من أئمة الصوفية ؟ فقال : انى اذا لبست المرقع كأنى أقول للناس انا محتاج اليكم ، واذا لبست الطيب غير الرقع فأنى أقول لهم أنا غنى عنكم ، وكان رضى الله عنه يقول : اعرف الله ثم كن كيف شئت ، وهو بذلك يعلمنا أن التقوى محلها القلوب ، وليست فى ظواهر الملبس والمأكل والمسكن ، وكان مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم يشير الى صدره ويقول ((التقوى ها هنا)) ، ولقد قال أمامنا الشافعى رضى الله عنه حديث انما الأعمال بالنيات يدخل فى نصف العلم ، فاذا نويت باللباس المتواضع جهاد نفسك حتى لا تفتن بالزخارف فأنت مثاب واذا نويت باللباس الفاخر اظهار نعمة الله عليك وابراز عزة المؤمن وغناه عن الناس ، فأنت مثاب (ان الله عليم بذات الصدور) .

الصوفية يعملون بما عملوا :

وكثير من المسلمين يعلمون مما يقرأون ما كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين أطاعوه قولا وفعلا وحالا) ، ولكنهم لا يعملون بعملهم . أما السادة الصوفية فانهم

يقلدونهم ، ويعملون بعملهم القائم على الكتاب والسنة ، وهذا هو سر نجاحهم ، وسبب ازدهار أرواحهم ، خاصة وأنهم لا يريدون بعملهم الا وجه الله تعالى .

ولهذا تراهم يتدبرون القرآن ، ويقولون اننا مخاطبون به كلمة كلمة ، وهو كلام عزيز من عزيز ، وحكيم من حكيم ، فوجب على قارئ القرآن أن يتدبر باطن الكلام ، ويتفكر فغوامض الخطاب ، لأنه عميق البحار وواسع الأقطار ، وكذلك يتدبرون السنة مثل هذا التدبير لأنها من وحى الله تعالى (وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى) ولذلك كان قضاؤه من قضاء الله ، والتسليم بقضائه صلى الله عليه وسلم واجب .

ومن هنا كانت الامامة فى تربية الأرواح ، لهؤلاء الصوفيه، لأنهم يمدون الأرواح بالأنوار التى مدهم الله بها ليكونوا حجة لله فى الأرض . وقد جاء فى الحديث الشريف ((من عمل بما علم ، ورثه الله علم ما لم يعلم)) .

وجود الصوفية فى كل زمان :

ويقول أمامنا على كرم الله وجهه : الناس ثلاثة ، عالم ربانى ، ومتعلم على سبيل النجاة ، وهمج رعاع اتباع لكل ناعق يميلون مع كل ريح لم يستضيئوا بنور العلم ولم يركنوا الى ركن وثيق ،ثم يضيف كرم الله وجهه فيقول ، لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة ، أما ظاهرا مشهورا ، أو خائفا مغمورا ، لئلا تبطل حجج الله وبيناته ، وكم هم ؟ وأين أولئك ؟ والله انهم الأقلون عددا ، الأعظمون عند الله قدرا .

ويقول ابنه مولانا الامام الحسين رضى الله عنه ، الناس ثلاثة : رجل كالغذاء لا يستغنى عنه أبدا ، ورجل كالدواء يحتاج اليه حينا بعد حين ، ورجل كالداء لا يحتاج اليه أبدا .

مذاقاتهم وخصوصياتهم :

ويقول فى علمهم وجهادهم مولانا الامام على كرم الله وجهه : هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة ، فباشروا روح اليقين ، واستلانوا ما استوعره المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الغافلون ، عاشوا بأبدان أرواحها معلقة بالملأ الأعلى ،أولئك خلفاء الله فى أرضه ، والدعاه لدينه .

لزوم الصوفية للمجتمع :

ومن الطبيعى ، وقد ختم الله الرسالات والنبوات بسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وشاء سبحانه أن يمكن للاسلام فى الأرض ، كما شاء أن تكون الأمة المحمدية خير أمة أخرجت للناس ، أن يحفظ التربية الصحيحة بأسباب يسوقها للناس فضلا منه وكرما ، فيكون لهم مثل عليا ، يأخذون بأيديهم الى مقامات الصادقين ، لا بالمقال وحده ، بل بالمقال والحال معا .

فان نطق هؤلاء الأئمة . نطقوا باللسان والجنان ، ومن هنا كان لارشادهم فى النفوس أثر بليغ يجتمع به شمل المؤمنين على الله وليس للغافلين من أوعية العلم مثل هذا الأثر فى قوته النفاذة فى البواطن .

ما معنى أوعية العلم :

ولعل القارئ يود أن يعرف المقصود بأوعية العلم ، فعند السادة الصوفية يفرقون بين العالم العامل والعالم الغافل ، فيقولون ان الاول عالم ، والثانى من أوعية العلم وليس فى نظرهم بعالم ، لأن علمه فى رأسه ولم ينفذ الى قلبه ، وليس العلم غاية فى ذاته ، بل هو وسيلة لأن يعمل به ، وقد نفى الله العقل عن علماء بنى اسرائيل ، الذين أمروا الناس بالبر ونسوا أنفسهم ، فقال سبحانه وتعالى لهم منددا (اتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم

وأنتم تتلون الكتاب افلا تعقلون) كما قال فى الكافرين (لهم قلوب لا يفقهون بها) ، فجعل الفقه فقه القلوب ، لا فقه الرؤوس ، كما ندد بمن آتاهم الله التوراة فلم يتعظوا بها فقال تعالى (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا)

العمل والجدل عند الصوفية :

وهويأسفون على من ضيع عمره من أهل العلم فى قيل وقال ، ويرون ذلك من العبث بالأوقات ، ولذلك يقول أمام الصوفية سيدى أبو القاسم الجنيد : ما طلبنا التصوف بالقيل والقال ، والمراء والجدال ، بل طلبناه بالجوع والسهر والأفعال .

ويتمسك سيدى الجنيد رضى الله عنه بالكتاب والسنه فيقول : من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به فى هذا الأمر ، لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة ، ويقول سيدى معروف الكرخى رضى الله عنه ، اذا أراد الله بعبد خيرا ، فتح له باب العمل وأغلق عنه باب الجدل ، واذا أراد الله بعبد شرا ، فتح له باب الجدل وأغلق عنه باب العمل ، وقد قال له الامام احمد بن حنبل رضى الله عنه حين يسمع منه ذلك الكلام : حسبى وحسبك هذه الكلمات اليوم ، فهى جماع الهدى .

موقف الائمة المجتهدين من الصوفية :

اعترف الأئمة المجتهدون بفضل الصوفية ، وقد قالوا ان سبب تصوف سيدى داود الطائى كلمة قالها له الامام أبو حنيفة رضى الله عنه – بعد أن أخذ داود عنه الفقه – يا أبا سليمان (كنية داود) أما الأداة فقد أحكمناها ، قال داود : فأى شئ بقى يا سيدى ؟ ، قال : العمل بها ، فشمر داود عن ساعد الجد وتصوف (على يد سيدى حبيب العجمى) .

وقد قال الامام مالك رضى الله عنه مشيدا بأهمية التصوف من تشرع ولم يتصوف فقد تفسق ، ومن تصوف ولم يتشرع فقد تزندق ، ومن تشرع وتصوف فقد تحقق ، كما أنه كان يقول ليس العلم بكثرة الرواية ، وانما هو نور يقذفه الله فى القلب ، وحين جاءه فى صباه الامام الشافعى رضى الله عنه ليتلقى عنه نظر اليه وقال له : يا غلام انى أرى فى قلبك نورا فلا تطفئه بالمعصية ، وهذا ما يقول به الصوفية ، أستنادا الى قوله الله تعالى (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) .

وقال أمامنا الشافعى رضى الله عنه : صحبت الصوفية فأخذت عنهم كلمتين ، قولهم : نفسك ان لم تشغلها بالحق ، شغلتك بالباطل ، وقولهم : الوقت كالسيف ان لم تقطعه قطعك .
أما أمامنا احمد بن حنبل رضى الله عنه ، فكان يوصى ابنه بالاجتماع بصوفية زمانه ، ويقول له : أنهم بلغوا فى الاخلاص مقاما لم نبلغه .

وأنت ترى مما تقدم أن الائمة الأربعة الذين أجمعت الأمة على تقليدهم فى الفقه ، لم ينكروا على السادة الصوفية شيئا ، بل أنهم رأوا التصوف لازما لأخذ الدين بقوة .

وهم لا شك كانوا فى ذواتهم صوفية كبار ، لكن المجتمع عرفهم بالفقه ، الذى ذللوا صعبة للأمة ، ولم يعرفوهم بالتصوف الذى كسبوه من تطبيقهم الروحى لما علموه من الاحكام .

ولذلك يقول سيدى عبد الوهاب الشعرانى : التصوف علم انقدح فى قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل بالكتاب والسنة ، كما انقدح لعلماء الشريعة حين عملوا بما علموه من الأحكام ، ولا يخفى على القارئ الكريم أن استنباط الأحكام من الكتاب والسنة كان بنور القلوب والافهام ، وهو ما أشارت اليه الآية الكريمة

(ولو ردوه الى الرسول والى اولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) فليس كل عالم مستنبطا للأحكام ، وانما هو فهم يعطيه الله من يشاء ، ألست ترى أن الملائكة وهم عباد نورانيون خاطبوا الحق قائلين (سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا) وذلك بعد أن امتحنهم الله تعالى وقال لهم (انبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين) وعهد سبحانه الى آدم عليه السلام أن ينبئهم بالأسماء التى علمها الله له ، وياله من شرف لسيدنا أدم عليه السلام ، والله يختص برحمته من يشاء .

التصوف ميسر لأهل الهمة :

قلنا ان التصوف علم الخواص ، وليس معنى ذلك أن العوام ليس ميسور لهم أن يتصوفوا ، بل دلت التجربة العملية على أنه ربما كان بعضهم أسرع انتفاعا به من بعض أهل العلم ، لصفاء صدور العوام ، وتسليم أنفسهم للمربين ، والتزام طاعتهم ، فى حين يركن أهل العلم الى نوع من الجدل باللسان ، أو الشك فى قرارة النفوس فى أشياء لا يفهمون أسرارها ، يرونها تصدر من شيوخهم العارفين ، فتقف بهم عن التقدم فى طريق القوم ، وطريقة القوم مبنية على حسن الظن بالشيوخ العارفين والتسليم لهم لأن الله جعل لهم نورا يمشون به فى الناس ، وهم على علم من ربهم لا يعلمه الا قليل ، وما وقع بين سيدنا موسى عليه السلام وسيدنا الخضر عليه السلام بارز فى القرآن الكريم لخواص أهل الله ، فقد فسر سيدنا الخضر ما التبس أمره على سيدنا موسى عليه السلام ، ثم قال له (وما فعلته عن أمرى ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا) .

وكم فتح الله باب الولاية الخاصة لعوام لا يقرأون ولا يكتبون ، فصاروا من الخواص مثل سيدى على الخواص ، الذى صحبه

سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنهما بعد معارضته فى أمره ، فقد وجد القوم يتبركون به ، ويسألونه الدعاء ، ولم يكن يعرفه ، فلما رأى اقبال الناس عليه ، سألهم : أهو من أهل العلم ؟ قالوا لا ، فقال : ما أتخذ الله من ولى جاهل ، فقال سيدى الخواص ردا على ذلك : ولو اتخذه لعلمه يا حمار زينب ، فكشف له عن أمر كان بينه وبين زوجته زينب لا يعلمه الا الله ، وذلك أنه أراد أن يأتى منهما ما يأتيه الرجل من أهله ، فمزحت معه وقالت لا أمكنك مما تريد حتى تكون حمارا أركبك ، فأعتقده ولزمه ، وانتفع بعلمه . وكان بعد صحبته وتلقيه علوم الأسرار عنه ، يذكره بالتجلة والاكبار ويقول عنه فى مؤلفاته : سألت شيخ الخواص سيدى عليا الخواص عن كذا فأجابنى بكذا .

وأقرب الينا عهدا من سيدى على الخواص ، سيدى الحاج محمد ابو خليل ، وهو شيخ طريقتنا الخليلية وساكن ضريحه الأنوار بالزقازيق ، فقد كان أميا ، فصار من خواص الأولياء ، وعلم بعلم الوراثة خلفاءه من العلماء الربانيين الذين أدركتهم ، وأخذت عنهم بفضل الله ، ورأيت منهم صدق ما روته الكتب عن السادة الصوفية وأخص منهم بالثناء العاطر شيخى العارف بالله : سيدى عبد السلام الحلوانى وتلميذه سيدى الشيخ على عقل رضى الله عنهما ، وهما من خلفاء الشيخ الذين انتفع الآلاف من صحبتهم والأخذ عنهم ، كما انتفعا هما وسائر الخلفاء من شيخهم رضى الله عنه ، وكما أن أستاذنا العالم العارف بالله ، وخليفتنا بعد أبيه السيد احمد عبد المنعم الحلوانى ، مد الله فى عمره ومدده ، تشهد له تآليفه العديدة والتى آخرهاكتاب ((نور الحى القيوم – فى التوحيد)) بمدى انتفاعه من صحبة سيدى القطب الامام أبى خليل رضى الله عنه ، فقد صحبه طفلا ، فنشأ منذ صباه فى حجر كبار العارفين ، حتى صار اماما ينتفع به فى عصرنا الحاضر ، فى الارشاد والكتابة والخطابة ، وكان سيدى

ابو خليل يخرجه للناس وهو بالمدرسة الأبتدايـة ، فيفسر لهم القرآن الكريم بالهام يسوقه الله له ببركة الشيخ وكرامته.

الشريعة والطريقة والحقيقة من لوازم المتصوف :

وليس معنى أن التصوف ميسر للعوام ، أن الصوفية يقولون بالتصوف بغير فقه ، فلا بد من الفقه بأحكام الدين الضرورية فى العبادات والمعاملات ، لأنه لا تتم عبادة الله الا على أساس أحكامه التى شرعها وبلغها لنا مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالشريعة لازمة لأن تعبد الله فى حدودها .

أما الطريقة ، فهى أن تسلك سبيل الهدى الى الله ، على يد عارف بآفات النفس ورعوناتها ، ليجلو لك مرآة قلبك حتى يصفو ، فتتجلى فيه أنوار ربك ، فالطريقة اذن هى أن تقصد الوصول اليه سبحانه لتكون معه فى جميع أوقاتك .

وأما الحقيقة فهى الدرة التى تبحث عنها فى مجاهداتك الظاهرة والباطنة ، وهى ان تشهد ربك بعين قلبك ، فتغنى به عن كل شىء سواه ، فتموت عن نفسك ، لتحيا بالله ربك ، فالحقيقة اذن هى أن تشهده جل جلاله وتعالت ذاته عما يشركون .

فقل أن الشريعة سفينة والحقيقة بحر تخوضه بالسفينة لتصطاد ان صادفتك العناية الدرة اليتيمة التى تغنيك أبدا الآبدين ، أو قل ان الشريعة هى الباب ، والطريقة هى الآداب ، والحقيقة اللباب ، أو قل ان الشريعة تعلق ، والطريقة تخلق ، والحقيقة تحقق ، أو قل ان الشريعة عبادة ، والطريقة عبودية والحقيقة عبودة ، أو قل ان الشريعة جسد ، والطريقة روح والحقيقة احساس ، أو قل ان الشريعة هى فعل المأمورات واجتناب المحظورات ، والطريقة هى تتبع أفعال الرسول صلى الله عليه وسلم ، والحقيقة هى تذوق بواطن الأمور وشهود الفعل من الله . أو قل ان

الشـــريعة اســـلام . والطريقـــة ايمـــان ، والحقيقـــة احســـان ، فـــلا بـــد مـــن تلازم الوسائل ان أريد الوصول الى غاية المنتهى .

سالك الطريقة ينتفع فى دينه :

وسالك طريق القوم ، لا يضيع أجره ان قصر عمره ، لأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا ، ونيته فى طلب الله تنفعه وان لم تبلغ حياته به القمة . يقول الله تعالى ٠ من كان يريد العزة فلله العزة جميعا ، اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) يقول تعالى (ومن خرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله) .

وهجـــرة ابـــن الطريـــق جهـــاد ونيـــة ، والفطـــرة النقيـــة تســـاعد فـــى ســـرعة التقـــدم ، والتـــدرج ســـبيل الـــذوق ، والمهـــم أن يســـير المريـــد علـــى السبيل السوى . الذى رسمه له شيخه العارف بالله .

من هو الشيخ العارف بالله :

عـــرف الســـادة الصـــوفية الشـــيخ العـــارف بـــالله بأنـــه ذلـــك الـــذى يربيـــه الحـــق مـــن صـــغره ، فتـــراه فـــى الطفولـــة معتـــزلا عـــن الصـــبيان كأنـــه فـــى الصـــبا شـــيخ ، ينبـــو عـــن الرذائـــل ، ويفـــزع مـــن النقـــائص ، ثـــم لا تـــزال شـــجرة همتـــه تعلـــو ، حتـــى يـــرى ثمرهـــا متهـــدلا علـــى أغصـــان الشـــباب ، فهـــو حـــريص علـــى العلـــم ، مـــنكمش علـــى العمـــل ، ســـاع فـــى طلـــب الفضـــائل ، خـــائف مـــن النقـــائص ، فلـــو تصـــورت التوفيـــق والالهـــام الربـــانى ، كيـــف يأخـــذ بيـــده ان عثـــر ، ويمنعـــه مـــن الخطـــأ ان هـــم ، ويســـتخدمه فـــى الفضـــائل ، ويســـتر عملـــه حتـــى لا يـــراه منـــه ، فلـــو تصورت النبوة تكتسب ، لدخلت فى كسبه .

وقـــد جـــاء فـــى الحـــديث الشـــريف مـــا هـــو أيســـر فـــى تعريفـــه ، فقـــد كـــان مولانـــا رســـول الله صـــلى الله عليـــه وســـلم ((مـــن عامـــل النـــاس فلـــم يظلمهم ، وحدثهم فلم يكذبهم ، ووعدهم فلم يخلقهم ، فهو ممن

كملت مروءته ، وظهرت عدالته ، ووجبت اخوته ، وحرمت غيبته)) .

كيف ينتفع المريد من صحبة الشيخ :

كل مسلم أودع فى قلبه توحيد الله ، وتوحيد الله نور كامن فى القلب كمون النار فى الحجر ، فهو كما يقول السادة الصوفية : أخفى من أن يرى وأبين من أن يخفى ، ان قدحته أورى ، وان تركته توارى .

فأثر الشيخ فى نفس مريده كأثر الزناد فى قدح الشرارة من الحجر عند احتكاكه به ، فاذا باعدت بين الزناد والحجر ، أو يقع بينهما احتكاك ، لم يظهر الأثر ، وبقى فى الحجر كامنا لا يره الناس ولا ينتفعون به .

أما المريد الملازم لشيخه ، فأنه بحسن المتابعة ، تنكشف أنواره وأسراره الكامنة ، شيئا فشيئا الى نهاية مقاماته ، حتاذ أستخلفه الله فى الأرض ، كان اماما متبوعا على الهدى .

والأرواح القوية تسقى الأرواح الضعيفة ، وتقويها بسر الهى يعطيه الله للشيوخ العارفين ، وهذا السر ميراث من زمن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد فرق الله بين أهل النور وأهل الظلمات فقال تعالى (أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها كما قال تعالى على لسان الصادقين من عباده (واجعلنا للمتقين أماما) وقال (اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون) (يوم ندعو كل اناس بامامهم)

وقال (فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور)

وقد كان البدوى الجلف يجلس لحظات الى مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقوم متحولا من الظلمات الى النور ، وليس ذلك الا بالسر الذى يدق خفاه عن فهم الأذكياء .

ويقرب لنا سيدى ابن القيم أثر الروح فى الروح ، بأن ابنك الطفل اذا أتى أمرا تنكره عليه ، فنظرت اليه نظرة دلت على عدم ارتياحك لفعله ، فان وجهه يحمر دون أن تمتد يدك اليه ، فهذا أثر من آثار سلطان روحك على روحه .

وقد جاء سيدنا أبو هريرة رضى الله عنه الى مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : انى أسمع منك الحديث ، وأخشى أن أنسى منه شيئا ، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبسط رداءه فبسطه ، فصب مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث حفنات (من مدد لا من مادة) ، يقول سيدنا أبو هريرة رضى الله عنه ، فضممتها الى صدرى فما نسيت شيئا بعدها ، وكان من بركة ذلك المدد أن سيدنا أبا هريرة كان أكثر الرواة حفظا للحديث ، حتى جاوز ما حدث به عن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من خمسة آلاف حديث ، روى الامام البخارى منها نحو الثلث ، ومعلوم أن سيدنا أبا هريرة لم يكن يقرأ أو يكتب ، فأغنته طهارة صدره عن القراءة والكتابة ، ومعلوم أيضا أنه أسلم متأخرا فى السنة السادسة من هجرة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، فبارك الله فى صحبته ، ونفع الأمة على يديه بما بلغه من السنة المطهرة ، ولا يخفى أنه كان عريفا لأهل الصفة الذين شغلهم الله بمحبته تعالى ، وأوصى بهم مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله الكريم (وأصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا) ، وقد قال مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نزلت عليه هذه الآية ((الحمد لله

الذى لم يمتنى حتى أمرنى أن أصبر نفسى مع ناس من أمتى)) ، وذلك ما يدلنا على فرح مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأرباب القلوب الطاهرة فى أمته ، الذين يزكيهم الله تعالى ، وينظر اليهم نظرة الرضا ، جعلنا الله منهم بمنة وكرمه .

رأى سيدى محى الدين بن عربى فى لزوم الشيخ :

يقول سيدى محيى الدين بن عربى ، وهو شيخ التصوف الأكبر فى لزوم الشيخ وأثره فى تربية المرشد (كتابه الحكم الالهية) من لم يأخذ الطريق من الرجال فهو ينتقل من محال الى محال ، كما يقول : الشيخ من أخذ منك وكشف عنك ، الشيخ من حمل عنك المشقات وأشهدك منازل القربات ، الشيخ من أمات نفسك قبل أن تموت وجال بروحك فى عالم الملكوت ، الشيخ من نقل اسمك ومحا رسمك ، الشيخ من أطلعك علىحالك لا من أخذ من مالك .

عناية الصوفية بالمجتمع :

وسيدنا أبو هريرة – رضى الله عنه – مع أنه كان عريف أهل الصفة ، فانه كان لا يهمل واجبه نحو المجتمع الذى يعيش فيه ، فقد كان من المدافعين عن سيدنا عثمان عندما أحاط الثوار بداره ، وهم بأن يقاتل دفاعا عن الخليفة الراشد ، لولا أن الخليفة عزم عليه ألا يفعل ، وفضل أن يضحى بنفسه ، حقنا لدماء كثيرة تكون من التحام المعارضين والمدافعين .

ويؤخذ مما رواه الامام مسلم ، أن سيدنا أبا هريرة رأى أبا سفيان عندما جاء الى المدينة ليكلم مولانا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى تعديل شروط الحديبية ، فقال له : ان سيوفنا لم تأخذ من عدو الله مأخذها ، فقال سيدنا أبو بكر الصديق لسيدنا أبى هريرة : أتقول ذلك لشيخ قريش وسيدهم

ولما علم رسول الله – صلى الله عليه وسلم من سيدنا أبى بكر بما كان ، قال له : لعلك أغضبتهم يا أبا بكر ، لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت الله ، فرجع اليهم سيدنا أبو بكر وقال لأهل الصفة أغضبتكم يا اخوتاه ، قالوا لا ، يغفر الله لك يا أخى ، وهذا يدلنا على عناية مولانا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بأهل الصفة الذين أوصاه بهم الله تعالى .

كما تدل القصة على أن أهل الصفة كانوا يحبون فى الله ويبغضون فى الله ، وتدل على أنه لا يجوز لمؤمن أن يؤذى أحدا من أولياء الله .

وتنفى القصة ما ينسب للصوفية زورا من أنهم قوم سلبيون ينعزلون عن المجتمع الذى يعيشون فيه ، وكيف ينعزلون عن المجتمع وهم يتأسون بمولانا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو منة للمجتمع ، يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويضع عنهم اصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، وسادتنا الصحابة وهم أهل الصف الأول فى التقوى أدوا واجبهم كاملا نحو المجتمع ، والناظر فى تاريخهم يرى أنهم – وهم أعلى المؤمنين قدما ، وأقوالهم يقينا ، وأشدهم حبا لله – جاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ولولاهم ما كان لنا فى بلادنا شرف الاسلام ، ولا كان للاعاجم ذلك الشرف ، ففتوحاتهم نشرت أنوار الاسلام فى المشارق والمغارب . ومعلوم أن سيدنا عمار بن ياسر ، كان من أبرز أهل الصفة ، وجهاده فى صف أمير المؤمنين على – كرم الله وجهه – أشهر من أن يذكر ، مع أنه كان فى وقت حرب صفين شيخا كبيرا فى السن .

وكتب التصوف ملأى بمواقف مشرفة فى كل زمان ، تشهد للسادة الصوفية بأنهم كانوا أمام الحكام وأهل السلطان يعتزون بالله ، ويقولون لهم كلمة الحق ، ويقفون منهم موقف الكرامة .

ومن ذلك مثلا ان الامام محيى الدين بن عربى ، كتب للملك الكامل عندما تهاون فى قتال الصليبيين يقول له . انك دنىء الهمة ، والاسلام لن يعترف بأمثالك ، فانهض للقتال أو نقاتلك كما نقاتلهم .

وعندما عصفت الحروب بالمتوكل العباسى ، نادى أهل الفتوة من الصوفية ، فجاءوه من كل مكان ، وكون منهم جيشا قويا حمى الاسلام وصان بلاد المسلمين .

ولما طغى المماليك فى بلادنا ، ثار شيخ الاسلام الصوفى الكبير العز بن عبد السلام ، وأمر بالقبض على المماليك ، وأفتى ببيعهم وضم ثمنهم الى بيت المال ، لأن صلاح الدين الأيوبى لم يعتقهم ، فصاروا ملكا للمسلمين ، ولأنهم خانوا أمانة المسلمين ، فوجب بيعهم وضم ثمنهم الى بيت مال المسلمين .

وقد دخل – رضى الله عنه – – خيمة القطب الكبير سيدى أبى الحسن الشاذلى فى ساحة الحروب الصليبية ، فوجده يدرس لأتباعه ، فاستمع اليه مطرقا ثم خرج صائحا : هذا كلام قريب العهد من الله ، هذا كلام من الهام الله وهداه .

وقد كتب الامام الغزالى الى ابن تاشفين ملك المغرب يقول له :

اما أن تحمل سيفك فى سبيل الله لنجده اخوانك بالأندلس ، وأما أن تعتزل امارة المسلمين ، حتى ينهض بحقهم سواك .

ويحدث الجبرتى بأن هزيمة الحملة الفرنسية على مصر، كانت على أيدى الطرق الصوفية وشيوخها .

ويحدثنا الامام المرسى أبو العباس – رضى الله عنه – فيقول ان ملكا من الملوك قال لبعض العارفين : تمن على ، فقال له : أتقول ذلك ولى عبدان قد ملكتهما وملكاك وقهرتهما وقهراك ، وهما الشهوة والحرص ، فأنت عبد عبدى ، فكيف أتمنى عليك وأنت عبد عبدى .

وذلك شبيه بما وقع بين عبد الملك بن مروان وأبن البيطار الصوفى ، فحينما قال الخليفة الأموى لأبن البيطار فى كبرياء الملك : تمن على ، وارفع حوائجك الى ، فأنا عبد الملك ، رد أبن البيطار وقال له فى عزة : وأنا أيضا عبد الملك ، فهلم نرفع حوائجنا أنا وأنت لمن نحن له عبدان .

المبايعة عند الصوفية :

يبايع المريد شيخه على طاعة الله ، فيضع يده فى يد شيخه ، ويتوب بين يديه الى الله ، ويعاهد الله أن يكون مستقيما ، عاملا بطاعة الله ، متجنبا معصيته ، خادما للفقراء والمساكين على قدر الطاقة ، مؤديا أوراده التى يرشده الشيخ اليها .

والبيعة أمر شرعى من زمن سيدنا ومولانا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهى ثابته بالكتاب والسنة ، وكانت تحصل باعطاء اليد ، وقبول الميثاق الذى يأخذه مولانا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على المبايعين ، كما وقع فى بيعات العقبة والرضوان والحديبية ، حتى لقد مثل صلى الله عليه وسلم بيده اليسرى يمين سيدنا عثمان ، حين كان داخل مكة يفاوض أهلها فى الصلح ، فوضع – صلى الله عليه وسلم – يسراه على يمناه حين بايع أصحابه تحت الشجرة ، وقال : وهذه يد عثمان يسرى خير من يمين عثمان ، ويا له من شرف ناله سيدنا عثمان ذو النورين على يده صلى الله عليه وسلم .

ويد مولانا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى كل بيعة تمثل يد الله تعالى : ((ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم)) ، وهذه الآية فى رأى السادة الصوفية أمدح أية لمولانا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حيث صارت يده ممثلة ليد الله الذى يشهد البيعة فى عليائه ، ويرضى عنها ،

ويحاسب أو يكافىء عليها ((فمن نكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما)) .

الشيوخ العارفون نواب :

والشيوخ العارفون بالله فى كل جيل ، نواب عن مولانا رسول – صلى الله عليه وسلم – فاذا بايع المؤمن واحدا منهم ، فقد بايع رسوله الكريم – صلى الله عليه وسلم – ومن بايع الرسول فقد بايع الله تعالى ، ويلقب هؤلاء الشيوخ فى اصطلاح السادة الصوفية بالفقراء ، ويقصدون بذلك اللقب أنهم فقراء الى الله أغنياء عن غيره ، ويقولون ان السالك الى الله لا يكون فقيرا بهذا المعنى الا بعد أن يتجرد الى الله من العلائق والعوائق ، بحيث لا تبقى له قبلة ولا مقصد الا الله تعالى ، واليهم يشير سيدى أبو مدين التلمسانى فى قوله :

ما لذة العيش الا صحبة الفقرا
هم السلاطين والسادات والأمرا
فأصحبهموا وتأدب فى مجالسهم
وخل حظك مهما قدموك ورا
متى أراهم وأنى لى برؤيتهم
أو تسمع الأذن منى عنهمو خبرا
قوم كرام السجايا حيثما جلسوا
يبقى المكان على آثارهم عطرا
يهدى التصوف من أخلاقهم طرفا
حسن التآلف منهم راقنى نظرا
لا زال شملى بهم فى الله مجتمعا
وذنبنا فيه مغفورا ومغتفرا

المراد والمريد :

ويترقى المريد فى دينه على يد شيخه حسب استعداده وجهاده ، وهناك صنفان من المؤمنين : مراد ومريد ، فالمراد هو الذى يسير به رغما عليه ، والمريد من سار بنفسه اليه ، ويؤخذ ذلك من قوله تعالى : ((الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب)) . ومن قوله تعالى ((فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام)) ومن قوله تعالى ((ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا)) .

فمن قال من المريدين أو المرادين ، سمعنا وأطعنا ، ترقى صعدا فى التربية ، وذاق مدارج الايمان رويدا رويدا الى نهاية مقاماته ، والى ما شاء الله من المقامات ، لأن السادة الصوفية يقولون بحق : ليس الايمان ما يتزين به العبد من الأقوال والأفعال ، ولكنه جرى السعادة فى سابق الأزل .

والطريق الذى يسلكه العبد لربه على يد شيخه ، انما يتعرض به لرحمات الله ، وما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن .

ورضى الله عن امامنا الشافعى اذ يقول لربه تعالى :

وما شئت كان وان لم اشأ
وما شئت ان لم تشأ لم يكن
خلقت العباد على ما علمت
ففى العلم يجرى الفتى والمسن
على ذا مننت وهذا خذلت
وهذا أعنت وذا لم تعن
فمنهم شقى ومنهم سعيد
ومنهم قبيح ومنهم حسن

ومع التسليم بما يجرى به القضاء ، يجب الأخذ فى الأسباب مع حسن الظن به تعالى ، وقوة التوكل عليه ، والركون اليه ، وقد قال تعالى ((فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم)) .

وما أروع ما يوفق به سيدى أبن عطاء الله بين الأخذ فى الأسباب وبين التوكل فى قوله : انه لابد لك من الأسباب وجودا ولا بد لك من الغيبة عنها شهودا ، فأثبتها من حيث أثبتها بحكمته ، ولا تستند اليها لعلمك بأحديته .

تربية الأجيال خلفا عن سلف :

والتربية الاسلامية العالية بالقول والفعل والحال يتوارثها الخلف عن السلف منذ قام الاسلام ، وقد قيل للامام الحسن البصرى : يا أبا سعيد ، نراك تتكلم بكلام لم نسمعه من غيرك ، فعن من أخذت هذا العلم ، قال أخذته عن حذيفة بن اليمان – الصحابى الجليل ، رضى الله عنه وعن سائر سادتى الصحابه – ويحدث حذيفة – رضى الله عنه – عن نفسه فيقول : كان أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يسألونه عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخالفة أن أقع فيه ، وعلمت أن الخير لا يسبقنى ، فكان أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقولون يا رسول الله ما لمن عمل كذا وكذا ، وكنت أقول يا رسول الله ، ما يفسد كذا وكذا ، فلما رآنى مقبلا على هذا العلم خصنى به .

لذلك يقول الامام أبو طالب المكى فى كتاب قوت القلوب : كان حذيفة قد خص بعلم المنافقين وأفرد بمعرفة علم النفاق ، وبسر ائر العلم ودقائق الفهم ، وخفايا اليقين بين الصحابة ، وكان عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – لا يصلى على أحد مات الا اذا رأى حذيفة يصلى عليه ، لأنه أختص بهذا العلم الباطنى.

وقد تكونت حول حذيفة بن اليمان مجموعة من الصحابة، منهم وابصة صاحب الحديث المشهور ، قال : أتيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأنا أريد ألا ادع شيئا من البر أو الاثم الا أسأله عنه ، فجعلت أتخطى الناس ، فقالوا اليك يا وابصه عن رسول الله ، فقلت دعونى أدنو منه ، فانه أحب الناس الى ، فقال : يا وابصة أخبرك بما جئت تسألنى عنه أو تسألنى ؟ فقلت أخبرنى يا رسول الله ، فقال : جئت تسألنى عن البر والاثم ، قلت نعم ، قال فجمع أصابعه وجعل ينكث بها صدرى ويقول : يا وابصة أستفت قلبك ، أستفت نفسك ، البر ما اطمأن اليه القلب واطمأنت اليه النفس والإثم ما تردد فى الصدر وان أفتاك الناس وأفتوك .

افضل التابعين يأخذ عن حذيفة بن اليمان الصحابى :

وعلى يد حذيفة – رضى الله عنه – تخرج امام الصوفية الأول سيدى الحسن البصرى . الذى تخرج على يديه أئمة الصوفية الأولين : مالك بن دينار ، وثابت البنانى ، وأيوب السختيانى ، ومحمد بن واسع . . وهم أعلام التصوف فى القرن الأول ومطلع القرن الثانى .

وقد قال عمران القصير : سألت الحسن عن شىء ، فقلت ان الفقهاء يقولون كذا كذا ، فقال : وهل رأيت فقيها بعينيك ؟ انما الفقيه الزاهد فى الدنيا ، البصير بدينه ، المداوم على عبادة الله – عز وجل – .

وبفضل الحسن البصرى استقرت زعامة التصوف فى البصرة . وقامت فى بغداد مدرسة صوفية بقيادة التابعى الجليل سعيد بن المسيب ، ومن تلاميذه أبو حمزة الصوفى .

ثم نشأت مدرسة ثالثة فى خرسان بزعامة ابراهيم بن أدهم – رضى الله عنه – ثم انتشر التصوف فى القرن الثالث الهجرى بفضل الامام أبى القاسم الجنبد – رضى الله عنه –

الصحابة كان يأخذ بعضهم عن بعض :

ولا تنس أن سيدنا عبد الله بن عباس – رضى الله عنهما – أخذ علمه عن سيدنا الامام على ، وكان – كرم الله وجه – واسع العلم والمعرفة ، حتى قال مشيرا الى صدره : ان ههنا لعلما جما لو أجد له حملة ، فكان ابن عباس يقول منوها بعلم أستاذه الكبير ، لقد أعطى على بن أبى طالب تسعة أعشار العلم ، وايم الله لقد شارككم فى العشر العاشر ، ولما سئل أبن عباس – رضى الله عنهما – عن علمه الى جانب علم الامام على – كرم الله وجهه – قال كقطرة الى جانب البحر المحيط . ومعلوم أن سيدنا عبد الله بن عباس كان من أكثر الصحابة علما ، حتى قالوا عنه أنه حبر الأمة فأنظر رعاك الله فضل الله كيف يؤتيه من يشاء .

ونوه سيدنا عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – بعلم مولانا الامام على – كرم الله وجهه – فقال : لولا على لهلك عمر ، وذلك للنور الذى كان يحل به المعضلات ، حتى كان سيدنا عمر يقول : أعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو حسن .

ابن عباس يجل زيد بن ثابت

وكان ابن عباس – رضى الله عنهما – يسير فى ركاب سيدنا زيد بن ثابت ، محترما فقهه وعلمه ، ((وسيدنا زيد هو جامع القرآن بأمر سيدنا أبى بكر وبمشورة سيدنا عمر)) ، فيقول له سيدنا زيد : لم تفعل ذلك يا أبن عم رسول الله ، فيقول : هكذا يعامل علماؤنا وكبراؤنا وكان سيدنا زيد يأخذ يده فيقبلها

فيقول له لم ذلك ، يقول : هكذا يعامل سادتنا آل البيت، وكان سيدنا ثابت البنانى المتقدم ذكره يأخذ يد سيدنا أنس بن مالك

ويقبلها ويقول يد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فاذا رأيت أيها القارىء مريدا يقبل يد شيخه اعترافا بفضله عليه فلا تعترض على ذلك بعد أن وقفت على نهج السلف الصالح فى تلك الظاهرة التى لا يقصد بها الا التبرك بالصالحين والاعتراف بفضلهم ، حتى لقد كان الامام مسلم يقول لأستاذه سيدى الامام البخارى اذا لقيه : دعنى أقبل رجليك يا طبيب الحديث فى علله ويا أستاذ الأستاذين ويا شيخ المحدثين ، ويرحم الله أمير الشعراء شوقى اذ يقول فى حكمه :

لا تحذ حذو عصابة مفتونة يجدون كل قديم شيء منكرا

الفتيا فى قلة من الصحابة

وانحصرت الفتيا فى الصحابة على كثرتهم ((جاوزوا مائة الف وقيل أنهم مائة وأربعة وعشرون الفا)) فى نحو مائة وثلاثين ما بين رجل وامرأة ، ومعلوم أن السادة الصحابة كلهم عدول وأهل نور ، عظم الخالق فى أنفسهم فصغر ما دونه فى أعينهم ، ومع هذا ، كان هؤلاء المفتون القليل عددهم ، مرجعا لمن شاء منهم أن يستفسر ، أو يزداد فى دينه خيرا ، ومن هذا نعلم ، أنه ليس كل صاحب فضل مهيئا للفتوى والارشلاد الى الله تعالى ، بل هو فضل الله يؤتيه من يشاء .

وكان ابن عمر من ورعه وخوفه من مسؤلية الفتوى ، يجيب على مسألة من كل عشر مسائل . . وكان أبن عباس على عكسه يكثر من الفتوى ، فكان يجيب على تسع مسائل من كل عشرة وكل ميسر لما خلق له ، ولذلك قال الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور ، لامامنا مالك – رضى الله عنه – : وطىء للناس كتابا ،

يجمع بين شدة ابن عمر وتراخيص ابن عباس ، فوضع كتابه المشهور فى الحديث : ((الموطأ) .

وكان عبد الله بن رواحه الأنصارى يحبذ الى بعض الصحابة أن يتذاكروا فى موارد الأيمان فيقول لهم : قوموا بنا نؤمن ساعة ، أى نزداد فى ديننا يقينا .

مواجيد الصحابة بين يدى رسول الله – صلى الله عليه وسلم –:

وكان حنظلة بن الربيع – أحد كتبة الوحى – يقول فيما روته الصحاح : نكون عند رسول الله يذكرنا بالجنة والنار حتى كانا رأى عين ، فاذا خرجنا من عنده عافسنا – يعنى خالطنا ولا عبنا – الأولاد والزوجات والضيعات ونسينا كثيرا ، وكان حنظلة يتهم نفسه بالنفاق اذا ترك مجلس رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ففارقته تلك الحال التى تأتيه من تذكير رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حتى لقد لقيه سيدنا أبو بكر الصديق يوما فقال له : كيف أنت ؟ قال : نافق حنظلة ، قال : سبحان الله ، ما تقول ؟ فوصف له ما يكون عليه عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وما يكون عليه اذا ما فارقه ، فقال له سيدنا أبو بكر الصديق – رضى الله عنه – : والله لأجد مثل ذلك ، انطلق بنا الى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فانطلقا وذكرا له ذلك ، فقال عليه الصلاة والسلام : ((لو تدمون على ما تكونون عندى وفى الذكر لصافحتكم الملائكة فى فرشكم وفى طرقكم ، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ، ولكن يا حنظلة ساعة و ساعة ، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة)) ونستدل مما تقدم على ما يأتى :

اولا – ان مولانا رسول الله – صلى الله عليه وسلم –هو السراج المنير الذى تصدر عنه الأضواء : ((يأيها النبى أنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا)) .

ثانيا – ان المؤمن لا يكتفى بعقيدة التوحيد ، بل يسعى لربه جاهدا ليزيد نورا على نور : ((هو الذى أنزل السكينة فى قلوب

المؤمنين ليزدادوا أيمانا مع ايمانهم ، ولله جنود السموات والأرض ، وكان الله عليما حكيما)) .

وقد أثبت الامام القرطبى - رضى الله عنه - ما رواه ابن عباس - رضى الله عنهما -: بعث النبى - صلى الله عليه وسلم - بشهادة أن لا اله الا الله ، فلما صدقوه فيها زادهم الصلاة ، فلما صدقوه زادهم الزكاة ، فلما صدقوه زادهم الصيام فلما صدقوه زادهم الحج ، ثم أكمل لهم دينهم .

ويتعرض الامام القرطبى لشرح زيادة الايمان مرة أخرى فيقول : ان نفس الأيمان الذى هو تاج واحد ، وتصديق واحد بشىء ما ، انما هو معنى فرد ، لا يدخل معه زيلدة اذا حصل ، ولا يبقى منه شىء اذا زال ، فلا يبقى الا أن تكون الزيادة والنقصان فى متعلقاته دون ذاته ، فيزيد وينقص من حيث الأعمال ، لا سيما ان كثيرا من العلماء يوقعون اسم الايمان على الطاعات لقوله - صلى الله عليه وسلم - : ((الايمان بضع وسبعون بابا ، فأعلاها قول لا اله الا الله وأدناها اماطة الأذى عن الطريق)) ، أخرجه الترمزى وزاد مسلم : ((والحياة شعبة من الابمان)) . وفى حديث على - رضى الله عنه - أن الايمان ليبدو بيضاء فى القلب . كلما ازداد الايمان ازدادت حتى يبيض القلب كله . هذا ويقول الامام البخارى - رضى الله عنه - حضرت العلم عن ألف وثمانين شيخا ، كلهم أجمعوا على أن الايمان علم وعمل ، يزيد وينقص .

ثالثا - أن السادة الصحابة مع أنوارهم الموهوبة وفطرتهم النقية وقلوبهم الطاهرة الزكية ، كانوا يتعاونون على الهداية ، فيسألون أهل الذكر ، ويشد بعضهم بعضا فى الأخذ بالبر والتقوى امتثالا لقوله تعالى ((وتعاونوا على البر والتقوى)) .

رابعا – كان الصحابة يحرصون على الألتقاء بمولانا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولا يكتفون بحبه روحيا لأن الاجتماع الشخصى له أثره فى سقاية الروح ، كما أنهم حرصوا على الائتمار بأمره والانتهاء بنهيه ، امتمالا لقوله تعالى ((وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)) ، وطاعته – صلى الله عليه وسلم – هى سبيل الاهتداء ، بدليل قوله تعالى (وان تطيعوه تهتدوا) .

أهمية اجتماع الأشباح فى تربية الأرواح :

وقد انقطع أحد أتباع سيدى المرسى أبى العباس عن الاجتماع به فقال : لم تنقطع عنى ، قال : يا سيدى استغنيت بك ، فقال – رضى الله له معلما – : ما استغنى أحد بأحد ، وما استغنى سيدنا أبو بكر برسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولم ينقطع عنه يوما واحدا .

ومع أن سيدنا أبا بكر – رضى الله عنه – لم ينقطع عن مولانا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يوما واحدا ، فانه كان يبكى عندما يدخل الرسول – صلى الله عليه وسلم – بيته ، ويقول وهو يبكى : واشوقاه اليك يا رسول الله .

والأنوار لا يعارض بعضها بعضا ، بل تعاون بعضها بعضا ، لا بل ان بركتها تتعدى الى من يقترب منها أو يجاورها ، أو يمشى على هداها ، فاذا كان فى البيت سراج ينير ظلمته فدخلت فيه بمصابيح أخرى ازداد نورا على نور .

وكذلك الأرواح التى تلابس الأجساد وتختلط بها اختلاط الخضرة بالعود ، فان شهوات الأجساد تعكر صفاءها ، وجلاء القلوب يزيدها صفاء ونورا ((كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون)) فالران الذى يعكر الصفاء ويعترض النور كما تعترض الظلمة ضوء الصباح ، فاذا اشتغل العبد بالطاعات ، وهذب نفسه

بالمجاهدات ، طهر من أوصاف بشريته شيئا فشيئا ، على قدر جهاده واستعداده ، وعون الله الذى يأتيه على يد شيخه وأمامه ، الذى هو أعرف منه بطريق السلوك الى الله تعالى .

ويقول السادة الصوفية بحق : ان من جالس جانس ، فان جلست مع المحزون حزنت ، وان جلست مع المسرور سررت ، وان جلست مع الغافلين سرت اليك الغفلة ، وان جلست مع الذاكرين انتبهت من غفلتك وسرت اليك اليقظة ، كما يقولون :

والروح كالريح ان مرت على عطر طابت وتخبث ان مرت على الجيف

وقد استعار القرآن الكريم للمعاصى الرجس ، واستعار للطاعات الطهارة فى قوله تعالى ((انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا)) .

الأمامة فى تربية الأرواح لآل البيت :

ولهذه العناية الالهية التى خص الله بها سادتنا أهل البيت ، انحصرت – أو كادت – فيهم الامامة فى الدين ، ولا عجب ففى بيتهم قام التوحيد ، ومنه خرج العلم والصدق والاخلاص والنور ، وكل خلق كريم .

وتعليل ذلك أنهم كانوا أصفى الناس معدنا وأنقاهم قلبا ، فكانو أحرص الناس على اقتفاء أثر جدهم المصطفى – صلى الله عليه وسلم – فتأسوا به فى ظواهرهم وبواطنهم ، فكملت فى السلوك الى الله ظواهرهم وبواطنهم ، وكان ما قال فيهم بحق سيدى العارف بالله الشيخ أحمد الحلوانى الخليجى – والد شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى – رضى الله عنهما – :

بنفسى أفدى الزهر من بضعة الزهرا

وان هم رضوا نفسى فقد عظمت قدرا

هم الدين والدنيـا لعمرى همو همو
فقل فيهو ما شئت لا ترهبن نكرا
وعال بهم من شئت ان ذكروا العـلا
وفاخر بهم من شئت ان ذكروا الفخرا
بدور سمت عن شـمس أكرم مرسل
أنـاروا دياجى الكون بالطلعة الغرا
وبالبر والتقوى وبالحلم والنـدى
وبالعلم والتقـوى وبالذكر والذكـرى

واقـرأ مـا وصـفهم بـه سـيدنا الامـام علـى – كـرم الله وجهـه – وقـد شـاء الله أن يكـون مـن صـلبه ذريـة مولانـا رسـول الله – صـلى الله عليـه وسـلم – فقـد قـال حقـا فـى سـادتنا آل البيـت : هـم عـيش العلـم وموت الجهل ، يخبركم حلمهم عن علمهم ، وظاهرهم عن باطنهم ، وصمتهم عن حكم منطقهم ، لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه ، هم دعائم الاسلام ، وولائـح الاعتصام ، بهم عاد الحق الى نصابه ، وانزاح الباطل عن مقامه ، وانقطع لسانه عن منبتـه ، عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية ، لا عقل سماع ورواية ، فان رواة العلم كثير ، ورعاته قليل .

علم الرواية وعلم الدراية :

وهنـا نقـف قلـيلا عنـد قولـه – كـرم الله وجهـه – : عقلـوا الـدين عقـل وعايـة ورعايـة ، لا عقـل سـماع وروايـة ، فـان رواة العلـم كثيـر ورعاته قليل .

فلـيس كـل مـن علـم عمـل ، ولـيس كـل مـن عمـل أخلـص ، ولـيس العلـم بالروايـة ، انمـا العلـم بالدرايـة والرعايـة ، وقـد قـال تعـالى : ((ليتفقهـوا فـى الـدين ولينـذروا قـومهم اذا رجعـوا اليـهم)) . . ولا يستطيع أن ينذر قومه الا الذى أنذر نفسه ، لأن فاقد الشىء لا يعطيه .

ان الهمة فى طلب الله تورث أنوار خاصة ، وتخلص النفس من علم المادة وتعرج بها الى علم الروح ، فتكون للمؤمن مواجيد رحمانية حتى يرى الغيب كأنه العيان ، فقد مر عليك ما وصف به حنظلة بن الربيع مواجيدهم حين كان مولانا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يذكرهم بالجنة والنار حتى كانا رأى العين ، فاذا خرجوا من عنده لم يكونوا على هذه الحال ، وهى حكمة من الله لأن العبد مكلف بأمر دنياه واخراه ، فاذا دام على الحال الأخروى فى كل أوقاته ، أضر ذلك بدنياه وهو متعبد فيها يكسب عيشة وعيش أولاده ، وذويه ، كما هو مكلف بحقوق زوجته وضيفانه وأمته .

لكنه اذا ذاق تلك المواجيد ساعة ، واشتغل بدنياه ساعة ، كان اشتغاله فى الدنيا بغير الغفلة عن الله التى تصاحب عامة المسلمين ، بل يرى روحه متعلقة بالملأ الأعلا الذى ذاقت حلاوته باقبالها على الله – سبحانه – فلا تبرحها حلاوة المذاق وان اشتغلت بأمر معاشها الدنيوى ، وقد قال تعالى فى أهل الحضور معه ((رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله)) فهم يشترون ويبيعون ولا يغفلون عن ربهم ، بل يراقبونه بقلوبهم الطاهرة المطهرة . .

ومن هنا يتميز مؤمن عن مؤمن ، وقد سأل مولانا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – سيدنا حارثة بن مالك الأنصارى فقال له : ((كيف أصبحت يا حارثة ؟))، فقال : أصبحت مؤمنا حقا يا رسول الله قال : ((ان لكل قول حقيقة، فما حقيقة ايمانك ؟)) قال : يا رسول الله ، عزفت نفسى عن الدنيا ، فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى وكأنى أنظر الى عرش ربى بارزا ، وكأنى أنظر الى أهل الجنة يتزاورون ، وكأنى أسمع عواء أهل النار فقال له مولانا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : ((عرفت فالزم)) .

وأنت ترى من ذلك أن سيدنا حارثة قوى يقنيه ، فكشف امام بصيرته الحجاب ، حتى كاد أن يرى الغيب معاينة ، وهم مقام سر به مولانا رسوا الله – صلى الله عليه وسلم – فأمره أن يحافظ عليه ويلزمه ، وهذا يفسر لنا ما قاله مولانا الامام على – كرم الله وجهه – : لو كشف الحجاب ما ازددت يقينا ، فمن وصل فى يقينه الى نهايته ، رأى الغيب بعين اليقين ، ولم يقف عند علم اليقين أو حق اليقين ، وهذا من الترقى فى السلوك الى الله تعالى الى درجة المقربين ، وهى درجة فوق درجات أصحاب اليمين ، وما يعقلها الا العالمون . .

وعلم اليقين كأن تعلم مثلا ان مكة المكرمة فى بلاد الحجاز ، فاذا ذهبت بنفسك للحجاز وصلت الى مدخل مكة ، كان ذلك من حق اليقين ، فاذا جست خلالها وسكنتها كان ذلك من عين اليقين ((يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات)) .

فرح النرقى فى مقامات اليقين :

وكما كان مولانا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يفرح بترقى أصحابه فى مقامات اليقين ، كان الصحابة – رضوان الله عليهم – يفرحون بترقى التابعين فى تلك المقامات ، وقد كان سيدى الربيع بن خيثم وهو من سادتى التابعين ، يتردد على سيدى عبد الله بن مسعود ، فكان يفرح به ويقول له معلنا ذلك الفرح : والله لو رآك رسول الله لفرح بك .

وحق لسيدى عبد الله بن مسعود أن يفرح بسيدى الربيع بن خيثم ، لأن سيدى الربيع كان يقول : اذا دخلت فى الصلاة لا يهمنى منها الا ما أقوله أو يقال لى ، وهذا يريك كيف كانت صلاته ، فهى صلاة يعقل فيها ما يقوله لربه وما يقوله ربه له ، وليس كل مصل

بهذا الوصف العظيم ، وانما يكون ذلك من حضور القلب بين يدى الله ، وهى درجة الصديقين من أهل اليقين .

وفى وصف رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لسيدنا عبد الله بن مسعود ، قال عنه أنه عليم معلم ، فهو اذن عليم فى ذاته ومعلم لغيره ، لذلك لا تعجب مع ما وصفة به مولانا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يقول حين نزل قوله تعالى ((منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة)) : ما كنت أحسب أن أحدا من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يريد الدنيا حتى نزلت هذه الآية .

فكان ابن مسعود اذن كما يقول السادة الصوفية ، فانيا عن الدنيا ، فلم تخطر له على بال ، كما لا يخطر الكذب على بال الرجل الصادق الذى يعتقد أن غيره لا يكذب .

سنة الانتفاع بأصحاب المواهب :

كذلك كان مولانا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يسن لنا الانتفاع بأصحاب المواهب ، فكان يقول مثلا لسيدى أبن مسعود – رضى الله عنه – اقرأ فيقول : أأقرأ وعليك أنزل يا رسول الله ، فيقول انى أحب أن أسمعه من غيرى ، وذلك لأن مولانا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان يقول فى قراءة ابن مسعود أن ابن مسعود يقرأ القرآن غضا كما أنزل .

وكذلك سأل – صلوات الله وسلامه عليه – مرة سيدى أبى بن كعب : أى آية فى كتاب الله تجدها أعظم ؟ فقال : الله لا اله الا هو الحى القيوم ، قال أبى ، فضرب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى صدرى وقال ليهنك العلم أبا المنذر ، فدلنا – صلى الله عليه وسلم – على فضل أهل العلم .

الاشارة فى خطابه – صلى الله عليه وسلم – :

وكان – صلى الله عليه وسلم – يخاطب بعض أصحايه بالاشارة عند الاقتضاء حسب استعدادهم ، حتى أن سيدنا عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – يروى أنه كان يدخل على مولانا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيجده يكلم سيدنا أبا بكر بلغة لا يفهم منها شيئا ويقول محدثا عن نفسه فى ذلك : فأسمع كلامهما ولا أفهمه وكأنى زنجى بينهما ، ويعتمد السادة الصوفية كثيرا على الاشارة فى كلامهم ويقولون اننا نخاطب بالاشارة أهل التصوف ، لأن الأخرص لا يفهمه الا أهله .

وقد أشار – صلوات الله عليه – لسيدنا عبد الله بن عمر بقيام الليل فقال فى اشارته : نعم الرجل عبد الله بن عمر لو كان يصلى من الليل ويقولون : ما ترك سيدى عبد الله بن عمر قيام الليل منذ سمع تلك الاشارة ، لأنه اعتبر ألاشارة أمرا واجب التنفيذ .

مجاهدات الصحاية لأنفسهم :

وكان سادتنا الصحابة يتقربون الى الله بالمجاهدات التى لا تبلغها همتنا مع ما كانوا فيه من الأنوار ، فقد مدحهم القرآن الكريم فى مواضع كثيرة مثل قوله تعالى : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود)) . فهم يد واحدة على من سواهم ، وهم متراحمون يدعو بعضهم لبعض ، ويرحم الكبير الصغير ، والقوى الضعيف ، والغنى البائس الفقير ، ثم هم مقبلون على الله تعالى حبا فيه تعالى ، فهم راكعون وساجدون ، يرجون رحمته ومغفرته ورضوانه .

مقامات الترقى فى اليقين :

((ان المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيرا والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما)) .

يدلنا على فضلهم ورقيهم فى درجات التقوى ، فهم مجاهدون بالنفس والمال ، وخاشعون بالحال ، ومغفور لهم فى المآل ، ولهم بالتقوى أجر المنال ، ولا ينال ماعنده الا بالتقوى ((ولكن يناله التقوى منكم)) ، فكانوا مثلا لأولى الألباب الذين جعلهم سبحانه أهل التقوى فى قوله تعالى ((واتقون يا أولى الألباب)) . كما قال فيهم ((ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد)) ، فليس كل سامع شهيدا ، انما الشهيد حاضر القلب ، مشرق الروح ، يقشعر جلده اذا سمع كلام الله ، لأن قلبه يتابع سمعه ، وجوارحه تتابع قلبه ، فيتأثر الجلد بما يتأثر به القلب ، وقد تعرض القرآن الكريم لهذا التأثر ، فقال تعالى :

((الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله)) .

تأثر الصحابة بمواعظه – صلى الله عليه وسلم ـ :

وكان سادتنا الصحابة – رضوان الله عليهم – اذا سمعوا وعظ مولانا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ذرفت عيونهم ووجلت قلوبهم ، وما ذلك الا من حسن استعدادهم وسلطان الروح المحمدية التى تنفذ الى قرارة النفوس ((وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا)) . . . وقد كانوا ينصتون لحديثه كل الانصات حتى قالوا فى وصفهم كانوا يجلسون بين يديه وكأن على رؤوسهم الطير وذلك من شدة الحب والاجلال لا من شدة الرهبة والسلطان ، ويرحم الله القائل

يا من أعيذ جماله بجلاله
حذرا عليه من العيون تصيبه
ان لم تكن عينى فانك نورها
أو لم تكن قلبى فانت حبيبه

ولا عجب فان مولانا رسول الله -صلى الله عليه وسلم - منة الله للمؤمنين ، بدليل قوله تعالى ((لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين)) .

الرسالة المحمدية عامة للناس كافة :

ولأنه – صلى الله عليه وسلم – كان مراسلا لكافة الناس ، فانه لم يفرق فى دعوته بين عربى وأعجمى ، وان أنذر فى بادئ الأمر عشيرته الاقربين ، لذلك تراه عاطفا على سادتنا سلمان (من الفرس) وعلى صهيب (من الروم) وعلى بلال (من الحبشة) وكذلك لم يفرق فى دعوته بين حر وعبد ، أو بين ذكر وأنثى .

استعانته – صلى الله عليه وسلم – فى نشر الدعوة بأصحابه ورسائله :

واستعان – صلوات الله وسلامه عليه – فى نشر دعوته – بأصحابه ، فكان يرسل السرايا ويؤمر عليهم واحدا منهم ، ويبعث الداعين الى الله للأطراف والجهات النائية عن مركز الدعوة ، وكان كذلك يكاتب الأبعدين برسائله ، فقد كاتب كسرى ، وقيصر ، والمقوقس . . ألخ .

الوفود بين يديه – صلى الله عليه وسلم -:

كما أنه كان يستقبل الوافدين عليه بالمدينة ، فيرحب بهم ، ويدعو من لم يؤمن منهم الى الله ، ويمد بنصائحه وعظاته المؤمنين

الـــذين آمنـــوا علـــى يـــد مبعوثيـــه ، والـــذين جـــاءوه تبركـــا وتوثيقـــا ، لايمانهم بين يديه – صلى الله عليه وسلم – .

علماء حكماء :

ولقـــد هزتنـــى وأطربنـــى فيمـــا قرأتـــه فـــى كتـــاب ((زاد المعـــاد – لابـــن القـــيم)) فى باب الوفود حديث رواه علقمة بن زيذ بن سويد الأزدى قال : حدثنى أبى عن جدى سويد بن الحارث قال : وفدت سابع سبعة من قومى على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فلما دخلنـا عليـه وكلمنـاه ، أعجبـه مـا رأى مـن سـمتنا وزينـا ، فقـال مـا أنـتم ؟ قلنـا مؤمنـــون ، فتبســـم رســـول الله – صـــلى الله عليـــه وســـلم – وقـــال : ((ان لكـــل قـــول حقيقـــة ، فمـــا حقيقـــة قـــولكم وايمـــانكم ؟)) ، قلنـــا خمـــس عشـــرة خصـــلة ، خمســـة منهـــا أمرتنـــا بهـــا رســـلك أن نـــؤمن بهـــا ، وخمـــس امرتنـــا أن نعمـــل بهـــا ، وخمـــس تخلقنـــا بهـــا فـــى الجاهليـــة ، فـــنحن عليهـــا الا أن تكـــره منهـــا شـــيئا ، قـــال : ((فمـــا الخمـــس التـــى أمـــرتكم بهـــا رســـلى أن تؤمنـــوا بهـــا ؟)) ، قـــالوا : أمرتنـــا أن نـــؤمن بـــالله وملائكتـــه وكتبـــه ورســـله والبعـــث بعـــد المـــوت ، قـــال : ((فمـــا الخمـــس التـــى أمـــرتكم أن تعملـــوا بهـــا .)) قلنـــا أمرتنـــا أن نقـــول لا الـــه الا الله ، ونقـــيم الصـــلاة ، ونـــؤتى الزكـــاة ونصـــوم رمضـــان ، ونحـــج البيـــت الحـــرام ان اســـتطعنا اليه سبيلا ، قال : فما الخمس التى تخلقتم بها فى الجاهلية ؟ قالوا الشكر عند الرخاء ، والصـــبر عنـــد الـــبلاء ، والرضـــا بمـــر القضـــاء ، والصـــدق فـــى مـــواطن اللقـــاء ، وتـــرك الشـــماتة بالأعـــداء . فقـــال – صـــلى الله عليـــه وســـلم – : ((حكمـــاء علمـــاء ، كـــادوا فـــى فقههـــم أن يكونـــوا أنبيـــاء)) ، ثـــم قـــال : ((وأنـــا أزيـــدكم خمســـا فتـــتم لكـــم عشـــرون خصـــلة ان كنـــتم كمـــا تقولـــون فـــلا تجمعـــوا مـــا لا تـــأكلون ، ولا تبنـــوا مـــا لا تســـكنون ولا تنافســـوا فـــى شـــىء أنـــتم عنـــه غـــدا تزولـــون وارغبـــوا فيمـــا عليـــه تقدمون وفيه تخلدون ، واتقوا الله الذى اليه ترجعون وعليه تعرضون)) ، قال فسمع القوم وصية رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وعملوا بها .

تفرق الأهواء فى هموم الدنيا وضرره :

كذلك قرأت فى زاد المعاد أن وفدا من بنى ابذى قدموا على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقالوا يا رسول الله ، قدمنا اليك بزكاة أموالنا ، قال : هلا رددتموها على فقرائكم)) ، قالوا ما قدمنا الا بما فضل عن فقرائنا ، فقال سيدنا أبو بكر الصديق : يا رسول الله ، ما رأيت وفدا كهذا فقال – صلى الله عليه وسلم – ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وأقام الوفد أياما ضيوفا على مولانا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فأجازهم بما يجيز به الوفود ، ثم قال لهم " ((هل بقى منكم أحد ؟)) قالوا : غلام حدث خلفناه على رحالنا ، قال : ((أرسلوه الينا)) ، فجاء الغلام الى مولانا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فأجازه بما اجاز به الوفد ، فقال الغلام : والله يا رسول الله ما أعملنى من بلادى الا ان تدعو الله لى أن يغفر لى ويرحمنى ، ويجعل غناى فى قلبى ، فقال – صلى الله عليه وسلم – ((اللهم أغفر له .اللهم ارحمه ، اللهم اجعل غناه فى قلبه)) . وفى العام التالى جاء الوفد مرة أخرى لمولانا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقالوا يا رسول الله ، نحن بنو أبذى الذين آتوك آنفا قال ما فعل الغلام الذى كان معكم ؟)) قالوا والله انه أزهدنا فى الدنيا وأرغبنا فى الآخرة وانه يذكرنا بأمر ديننا ، حتى لو أن الناس اقتسموا الدنيا ما نظر اليها ولا التفت نحوها ، فقال – صلى الله عليه وسلم – : ((الحمد لله ، انى لأرجوا أن يموت جميعا يا رسول الله ؟ . ، قالو ا : أو ليس يموت الرجل منا جميعا يا رسول الله ؟ ، قال : تفرق أهواؤه وهمومه فى أودية الدنيا فلعل أجله أن يدركه فى بعض تلك الأودية ، فلا يبالى الله – عز وجل – فى أيها هلك)) .

تربية القلوب فى جنب الله :

من كل ماتقدم ، تدرك الاهتمام بتربية القلوب واصلاح الأرواح فى جنب الله منذ زمن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهذه التربية أساسية فى تزكية الدين ، وقد عنى بها السادة الصحابة رضوان الله عليهم ، وعنى بها بعدهم التابعون ، وتابعوالتابعين . ثم قيل لمن عنى بها بعد ذلك الزهاد والعباد . ثم قيل لهم الصوفية وللمشتبه بهم المتصوفة .

ومع تساوى المسلمين فى العقيدة ، واقامة الفرائض ، يتفاضلون حسب استعدادهم وجهادهم فى تزكية أرواحهم ، وتحليتها بالفضائل ، وتحليتها من الرذائل ، وعلو الهمة فى طلب الله ومحبته تعالى وايثاره على ما سواه .

ومن هنا جاء فضل الصحابة على التابعين ، وفضل التابعين على تابعى التابعين ، وفضل هؤلاء على غيرهم من الزهاد والعباد وفضل السادة الصوفية على عوام المؤمنين ، وقد ميز الله الخواص من العوام ، قال تعالى فى الخواص : ((رجال صدقوا وما عاهدوا الله عليه)) .

وقال فى العوام : ((يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ملا تفعلون)) . كما قال تعالى ((ثم اورثنا الكتاب الذين أصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله)) . والمؤمن لا يستطيع أن يشق بنفسه طريق التربية ، بل لا بد له من الأستعانة بامام أرشد منه فى الدين ، وأنضج منه فى التربية يسمع منه ، ويأخذ عنه ، ويتأثر به . . كما كان هو آخذ عن سلفه . .

وفى حياتنا اليومية ، نشاهد رابطة الخلف بالسلف فى كل شىء ، فالتاجر والزارع والصانع والفقيه والمتحث والمفسر والسياسى . . الخ ، يأخذون فنونهم عن سلفهم ، ثم يصيرون معلمين لخلفهم ، كل فيما يجيده بحسب استعداده واجتهاده وهكذا دلت تجارب الحياة العلمية كما نشاهدها بالفعل .

وكذلك نشاهد أن الخباز يحجز قطعة من عجين اليوم ليختمر بها عجين الغد ، حتى يصلح الاختمار بالأسبق ،والطير يطعم صغاره ويسقيها قبل أن تطير ، حتى اذا استطاعت الطير جالت طالبة رزقها هنا وهناك ، وتعلمت من أصولها كيف تطير وكيف تغدوا وتروح لتطعم صغارها وتسقيها وهكذا .

والتربية الروحية أصعب منالا من ذلك كله ، فهى لا تؤخذ سماعا ، ولا رواية ، ولا أطلاعا فحسب ، بل لا بد فيها من التلقى بالسر الخفى ، والمذاق القلبى الذى يلقنه الشيخ للمريد .

وهذا السر الخفى ، نور من الله ، الذى يؤتيه من يشاء من عباده الهداه المرشدين ، لذلك لا تنكشف خصوصيتهم إلا لمن أراد الله به خيرا فى دينه ، لأنهم يشاركون الناس فى ظواهرهم ويختلفون عنهم فى بواطنهم ، فهم يأكلون ، ويشربون ، وينامون ، ويمرضون ويضحكون ويبكون . . الخ ، لكنهم على نور من ربهم ، ولا يظهر ذلك النور الا لطالبيه بصدق ، والساعين اليه بجد ، ابتغاء مرضاة الله تعالى : ((والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين)) .

فهم اذن أهل عناية ورعاية ، ويقول العارفون : ما دام العالم موجودا فلا بد من وجودهم لأن العالم شخص والأولياء روحه غير أن الامامة لا يظفر بها الفرد بعد الفرد حتى كأنها فى كل عصر مفقودة وهذه سنة معهودة ، لأن الجوهر النفيس لا يزال عزيز

الوجـــود يكـــاد لعزتـــه يحكـــم بأنـــه لـــيس بموجـــود ويقـــول العـــارفون انـــك ان صـــدقت فـــى طلـــب الله لـــدلك علـــى مـــن يـــدلك عليـــه ، ولـــذلك قـــال سيدى ابن عطاء الله السكندرى فى حكمه : سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه الا من حيث الدليل عليه .

فـــلا تعجـــب اذن أن يكـــون الســـادة الصـــوفية مـــن النـــاس ، ويكـــون النـــاس مـــنهم فـــى التبـــاس ، فالفلاســـفة يحتكمـــون فـــى شـــأنهم الـــى العقـــل ، والعقـــل كمـــا يقـــول الســـادة الصـــوفية آلـــة للعبوديـــة . ولـــيس ألـــه للاشـــراف علـــى الربوبيـــة ، والعقـــل عـــاجز ، والعـــاجز لا يـــدل الا علـــى عـــاجز مثلـــه ، والعقـــل يجـــول حـــول الكـــون ، فـــاذا نظـــر الـــى المكـــون ذاب ، ثـــم ان العقـــل يتغيـــر بتغيـــر الازمـــان ، فـــاذا تغيـــر العقـــل بتغيـــر الـــزمن كان الدين عرضة للتغيير بتغير العقل ، فأى دين يتبعه الناس ؟ القديم أو الحديث ؟ والصوفية يتبعون الدين وهو شرع الله تعالى .

والفقهاء الشرعيون يحفظون حدود الشريعة ، ويقفون فى تطبيقهاعند الشكل ، وهم فى هذه الوقفة أشبه بالنحويين الذين لا يعنيهم من الكلام الا أن يكون شكله صحيحا من حبث الاعراب ، واستوى عندهم بذلك ركيك التركيب وفصيحه ، بخلاف أهل البيان ، فانهم لـــم يقفـــوا عنـــد صـــحة الاعـــراب ، بـــل تعـــدوه الـــى صـــحة البيـــان ، لأن اللغـــة ســـبيل الخطـــاب ، والخطـــاب ســـبيل التـــأثير ، والتـــأثير انمـــا يكـــون بصـــحة اللفـــظ وقـــوة المعـــانى النافـــذة الـــى قلـــوب الســـامعين ، ومـــن هنـــا يتميـــز كاتـــب عـــن كاتـــب ، وشـــاعر عـــن شـــاعر ، وخطيـــب عـــن خطيـــب . ولهـــذا مـــن الله علـــى الانســـان بالبيـــان ، فقـــال – ســـبحانه وتعـــالى – ((خلـــق الانســـان علمـــه البيـــان)) ، واذا صـــحب ســـلامة البيـــان صـــدق الـــروح والوجـــدان ، خـــرج الكـــلام مـــن القلـــب ، فحـــل فـــى القلـــب ، وخاصـــة اذا صادفه قلب يود الاتباع طلبا لله تعالى :

((فبشـــر عبـــادى الـــذين يســـتمعون القـــول فيتبعـــون أحســـنه اولئـــك الـــذين هـــداهم الله وأولئـــك هـــم أولـــو الألبـــاب)) .

فاذا استمع المريد ولم يتبع لا يتقدم فى دينه ولو اجتمع بقطب الوقت طول العمر ، أما الذى يسمع ويطيع ويجتهد فانه من أهل الفوز لامحاله ، ومن جد وجد ، ومن قرع الباب ولج ولج ، وان الله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

التربية العالية فى الحديثين الشريفين المتقدمين :

ونركز القول على كلمتين من جوامع كلماته – صلى الله عليه وسلم – فى الحديثين المتقدمين مع الوفدين اللذين أشرنا اليهما فيما تقدم .

وأول تلكما الكلمتين الجامعتين ، هى ما قاله صلى الله عليه وسلم للوفد الأول ، بعد أن استمع الى منهاجهم فى ايمانهم ، وعددوا له الخمس عشرة خصلة ، وآخرها الخمس التى قالوا فيها : الشكر عند الرخاء والصبر عند البلاء ، والرضا بمر القضاء ، والصدق فى مواطن اللقاء ، وترك الشماتة بالأعداء .

فقد قال – صلى الله عليه وسلم – مسرورا بايمانهم وخصالهم تلك : حكماء ، علماء ، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء .

ومن ذلك يعلمنا مولانا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن الفقه ليس الوقوف على أحكام الشريعة فحسب ، بل الفقه أن يؤدى بك تطبيق الأحكام الى ذلك المسنوى العالى من مكارم الأخلاق ، حتى تشكر فى الرخاء وتصبر على البلاء ، وترضى بمر القضاء وتصدق فى مواطن اللقاء ، وتترك الشماتة بالأعداء .

فأن فعلت كنت مثل هؤلاء الصحابة ، الذين كادوا أن يكونوا أنبياء ، لولا أن النبوة توهب ولا تكسب وهو ما أشار اليه السادة الصوفية فى تعريف الشيخ ، ((الذى مر على القارىء الكريم)) فى قولهم : فلو تصورت النبوة تكتسب لدخلت فى كسبه .

فاذا أنت وصلت الى ذلك المستوى الرفيع ، فاستمع الى ما أرشدهم به – صلى الله عليه وسلم – فى قوله لهم : ان كنتم كما تقولون ، فلا تجمعوا ما لا تاكلون ، ولا تبنوا ما لا تسكنون ، ولا تنافسوا فى شئ أنتم عنه غدا تزولون ، واتقوا الله الذى اليه ترجعون وعليه تعرضون ، وارغبوا فيما عليه تقدمون وفيه تخلدون .

فهم قد ظفروا بهذا الارشاد ، بعد قطع العلائق والعوائق كما يقول السادة الصوفية ، فآمنوا بما أنزل على مولانا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأقاموا حدود الله ، وطهروا نفوسهم من الاشتغال بالناس ، حتى لم تبق فيها شماته بعدو ، فكملهم مولانا رسول الله بالخمس الأخيرة التى تم لهم بها عشرون خصلة ، وقد قيدها – صلوات الله وسلامه عليه – بشرط فقال : ان كنتم كما يقولون .

فالكمالات تبنى على أساس من التربية العالية ، التى يتدرج فيها السالك رويدا رويدا ، حتى يصير أهلا للتلقى الأعلا ، بحيث تعزف نفسه عن الدنيا فلا يتعلق بها همه تعلقا يشغله عن الله ، والواجب عليه أن يترك الغفلة والانشغال بالناس ليكون مع رب الناس ، ولذلك يقول سيدى المرسى أبو العباس – رضى الله عنه – : ليس الشأن من تطوى له الأرض ، فاذا هو بمكة أو غيرها من البلدان ، انما الشأن من تطوى عنه أوصاف نفسه ، فاذا هو عند ربه .

وثانى الكلمتين الجامعتين ، هى قوله – صلى الله عليه وسلم – للوفد الثانى : انى لأرجو أن يموت جميعا ، وعندئذ سألوه – صلى الله عليه وسلم –: أوليس الرجل يموت منا جميعا يا رسول الله ؟ فقال – صلى الله عليه وسلم – معلمنا لهم ولنا : تفرق

أهـــواؤه وهمومـــه فـــى أوديـــة الـــدنيا ، فلعـــل أجلـــه أن يدركـــه فـــى بعـــض تلك الأودية ، فلا يبالى الله عز وجل فى أيها هلك .

فهنـــا يعلمنـــا مولانـــا رســـول الله – صـــلى الله عليـــه وســـلم – أنـــه لـــو تـــرك الانســـان نفســـه لنفســـه وهـــواه ، تفرقـــت أهـــواؤه وهمومـــه فـــى أوديـــة الـــدنيا ، فأقبـــل علـــى الحظـــوظ الجســـدية المحرمـــة ، وعلـــى الافتنـــان بزخـــارف الـــدنيا الفانيـــة ، وســـلطانها الزائـــل ، وجاههـــا الفـــانى ، ومـــا لهـــا الأفـــل ، فلـــم يـــرض ربـــه فيمـــا نـــال مـــن دنيـــاه ، وغفـــل عـــن ســـعادته الأبديـــة فـــى أخـــراه ، يـــوم لا ينفـــع مـــال ولا بنـــون الا مـــن أتـــى الله بقلـــب ســـليم . . أى سليم من الشرك ، ومن كل معوق عن الله – سبحانه وتعالى – ومـــن هنـــا كانـــت حاجـــة البشـــر للمرســـلين ، فأرســـلهم الله مبشـــرين ومنـــذرين ، لـــئلا يكـــون للنـــاس علـــى الله حجـــة بعـــد الرســـل ، وقـــد خـــتم الله تلـــك الرســـالات بالرســـالة المحمديـــة ، فكانـــت مســـك الختام ، وكانت أوسع رسالة وأعمها فى تاريخ البشرية .

ولأنـــه لا نبـــوة ولا رســـالة بعـــده– صـــلى الله عليـــه وســـلم – قضـــى الله بتـــدبيره الـــرحيم ، أن يكـــون فـــى الأمـــة المحمديـــة – كمـــا ســـبق القـــول – العلمـــاء الربـــانيون ، وهـــم أوليـــاؤه المتقـــون أو الشـــيوخ العـــارفون . . لينوبـــوا عنـــه – صـــلى الـــه عليـــه وســـلم – فـــى الـــدعوة والارشـــاد ، حســـبة لوجهه تعالى .

وهـــؤلاء الشـــيوخ العـــارفون بـــالله ، يختـــارهم الله بعلمـــه لارشـــاد المـــؤمنين فـــى الســـلوك الـــى ربهـــم وهـــم ميســـرون لمـــا خلقهـــم لـــه مـــن دعـــوة المـــؤمنين الـــى الله ، بمـــا أودع فـــيهم مـــن حبـــه تعـــالى حبـــا يملكهـــم وينســـيهم غيـــره ، واذا أردت وصـــف ذلـــك الحـــب فـــاقرأ مـــا قالـــه الامـــام أبـــو بكـــر الكلابـــاذى – مـــن أعـــلام الصـــوفية فـــى القـــرن الرابـــع الهجـــرى ، حيـــث قـــال فـــى وصـــفهم – رضـــى الله عنـــه وعـــنهم –:

سبقت لهم من الله الحسنى ، وألزمهم كلمة التقوى ، وعزف بنفوسهم عن الدنيا ، صدقت مجاهداتهم فنالوا علوم الدراسة ، وخلصت عليها معاملاتهم فمنحوا علوم الوراثة ، وصفت سرائرهم فأكرموا بصدق الفراسة ، ثبتت أقدامهم ، وزكت أفهامهم ، وأنارت أعلامهم ، فهموا عن الله ، وساروا الى الله ، وأعرضوا عما سوى الله ، خرقت الحجب أنوارهم ، وجالت حول العرش أسرارهم ، وجلت عند ذى العرش أخطارهم ، وعميت عما دون العرش أبصارهم ، فهم أجسام روحانيون ، وفى الأرض سماويون ، ومع الخلق ربانيون ، سكوت نظار ، غيب حضار . . ملوك تحت أطمار ، أنزاع قبائل ، وأصحاب فضائل ، وأنوار دلائل ، آذانهم واعية . وأسرارهم صافية ، ونعوتهم خافية . . صفوية صوفية ، نورية صفية . . ودائع الله بين خليقته ، وصفوته فى بريته ، ووصاياه لنبيه ، وخباياه عند صفيه . . هم فى حياته أهل صفته ، وبعد وفاته خيار أمته ، لم يزل يدعو الأول الثانى ، والسابق التالى ، بلسان فعله ، أغناه ذلك عن قوله .

وأنت ترى من وصفه هذا ، أن هؤلاء الائمة المرشدين ، هم صفوة الأمة ، وهم خيارها ، وهم وارثوا القدم المحمدى ، خلفا عن سلف ، وانهم لا يزالون قائمين على دعوة الحق اى ما شاء الله ، مصداقا لقوله – صلى الله عليه وسلم : ((لا تزال طائفة من أمتى قائمة على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ، ولا من خالفهم ، حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون)) ، وهم الذين أشارت اليهم الآية الكريمة ((ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون)) .

واننا اذا ربطنا بين الحديثين اللذين رويا عن الوفدين المذكورين ، نجد أن مستوى التربية المشار اليه فى الحديثين لخواص المؤمنين ، ولا يبلغه عوامهم ، ففى الحديث الأول قال صلى

الله عليه وسلم : ((ان كنتم كما تقولون . . .)) ، وفى الحديث الثانى قال أصحابه عن الغلام الذى كان معهم أول مرة ، وسأل عنه مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم – فى المرة الثانية ((ما فعل الغلام الذى كان معكم ؟)) ، فقالوا : انه أزهدنا فى الدنيا وأرغبنا فى الآخرة ، وانه يذكرنا بأمر ديننا ، حتى لو أن الناس اقتسموا الدنيا ، ما نظر اليها ولا التفت نحوها ، وذلك المقال انما يكون لخواص القوم ولا يكون لعوامهم ، فان العوام يفتنهم زخرف الدنيا ولهوها ، وصدق مولانا الامام الحسين بن على – رضى الله عنهما – فيما قال : الناس عبيد الدنيا ، والدين لعق على السنتهم يحوطونه ما درت به معايشهم ، فاذا محصوا بالبلاء قل الديانون .

واذا كان مولانا الامام الحسين – رضى الله عنه – قد قال ذلك فى منتصف القرن الأول الهجرى ، فماذا نقول نحن اليوم وقد صرنا فى القرن الرابع عشر .

ويرضى الله عن أم المؤمنين سيدتنا عائشة ، فقد كانت تقول يرحم الله لبيدا حين يقول :

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم
وبقيت فى خلف كجلد الأجرب
كيف لو عاش لبيد الى زماننا . .

فجاء من بعدها سيدنا عبد الله بن الزبير – ابن أختها – وقال : يرحم الله أم المؤمنين حين كانت تتمثل بقول لبيد :

ذهب الذين يعاش فى اكنافهم
وبقيت فى خلف كجلد الأجرب

ثم قال لو عاشت أم المؤمنين الى زماننا .

وهـــذه الظـــاهرة – ظـــاهرة التنـــاقض – مـــن طبيعـــة الحيـــاة الـــدنيا ، وهـــى مـــن علامـــات الفنـــاء الـــذى قامـــت عليـــه الحيـــاة الـــدنيا ، وتصـــير اليه كاملا فى الأجل المقدور .

توقى الضرر من قدر الله

لكـــن الأمـــراض ، وان كانـــت مـــن قـــدر الله ، لا تتـــرك ، بـــل يجـــب أن يقاومها الأنسان بالتوقى منها أو علاجها بالأدوية ، التى هى أيضا من قدر الله .

وقد ذهب أمير المؤمنين عمر – رضى الله عنه – لزيارة الشام وكان معـــه نفـــر مـــن الســـادة الصـــحابة ، فلمـــا بلغـــوا الشـــام ، علمـــوا بوجـــود الطـــاعون ، فقـــال بعضـــهم نـــدخل ، وقـــال بعضـــهم نرجـــع ، ولما أخبر أمير المؤمنين بما قاله مولانا رسول الله – صلى الله عليه وســـلم – مـــن أنـــه اذا ظهـــر الطـــاعون فـــى بلـــد ، فالخـــارج لا يـــدخل . والـــداخل لايخـــرج (وهـــو حصـــار طبـــى يســـلم بـــه العلـــم الحـــديث) ، فقـــرر – رضـــى الله عنـــه – العـــودة الـــى الحجـــاز ، فقـــال قـــائلهم مـــن رفقائـــه : يـــا أميـــر المـــؤمنين أنفـــر مـــن قـــدر الله ؟ ، قـــال نعـــم ، أفـــر مـــن قدر الله الى قدر الله .

ولهـــذا وجـــب أن يتواصـــى المـــؤمنين بـــالحق وأن يكفـــوا عـــن الشـــر ، وأن يـــأمروا بـــالخير ، وان قـــل رواده ، ويقـــول الامـــام الشـــيخ محمـــد عبـــده – رحمـــة الله – : لا يحيـــد بـــك عـــن طريـــق الحـــق قلـــة الســـالكين فيه . .

الشيخ النافع والمريد الطائع :

وانمـــا قصـــدنا بمـــا قـــدمناه للقـــارىء الكـــريم ، أن نقنعـــه بمبـــدأ أخـــذ التربيـــة خلفـــا عـــن ســـلف ، وأن التربيـــة العاليـــة فـــى الـــدين ، لا بـــد مـــن ســـلوكها علـــى يـــد العـــارفين ، الـــذين يأخـــذون بيـــد الســـالك الـــى الله بالمقـــال النافـــذ الـــى أســـماعهم ، والحـــال النافـــذ الـــى قلـــوبهم :

((ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسئولا)) .

وليس كل من يسمع من العارفين مجيبا ، وليس كل التابعين مريدا ، فكم من سامع أمرا لا يأتمر به ، وكم من سامع نهيا لا ينتهى عنه ، وكم من تابع بالعادة لا بالعباده ، فاذا لم يفتح على المريد فى سلوكه ، كان ذلك عيبه لا عيب شيخه ، وخاصة اذا كان قد دقق فى اختيار شيخه ، فان لم يكن له ملكه فى حسن الاختيار وجب عليه أن يقلد أهل الرشد والدين فى الاختيار الذى أراده الله لهم .

ولذلك لا تعجب أن يقول لنا سيدى ابن عطاء الله السكندرى ناصحا ، وليس شيخك من واجهتك عبارته ، انما شيخك من سرت فيك اشارته ، وليس شيخك من سمعت منه ، وانما شيخك من أخذت عنه ، وشيخك هو الذى يجلو مرآة قلبك ، حتى تجلت فيه أنوار ربك ، ولازال محاذيا لك حتى ألقاك بين يديه ، وزج بك فى نور الحضرة وقال لك : ها أنت وربك .

وقد أعجبنى ما قرأته عن بعض العارفين حين سأله بعض الناس فقال له : هل يوجد من يربى ؟ فقال فى ابداع : وهل هناك من يتربى ؟

ولابد اذن من أن تقابل المؤمن العناية فى الناحيتين ، فى شيخه الذى يربيه ، وفى نفسه التى يود أن تتربى فى جنب الله . فان يسر الله له ، فلقى شيخا من العارفين ، وتتلمذ على يديه فليسأل الله المعونة فى جهاد نفسه ، فان جهاد النفس هو الجهاد الأكبر ، وصدق من قال :

انى بليت بأربع يرموننى ... بالسهم من قوس له توتير

أبليس والدنيا ونفسى والهوى ... يارب أنت على الخلاص قدير

وكذلك قد يكون المريد مهيئا لكسب الخيرات باستعداد طيب فيه ، ويسئ اختيار شيخه فلا ينتفع من صحبته ، بل وقد يضر كما قيل بحق :

وللشيخ آيات اذا لم تكن له
فما هو الا فى ليالى الهوى يسرى
اذا لم يكن علم لديه بظاهر
ولا باطن فاضرب به لجج البحر
فأقرب أحوال العليل الى الردى
اذا لم يكن منه الطبيب على خبر
وآياته ألا يميل الى هوى
فدنياه فى طى وأخراه فى نشر

التربية بالاصطلاح والتربية بالهمة والحال :

وقد أورد العارف بالله سيدى القطب عمر الشبراوى – رضى الله عنه – فى كتابه " مفتاح الأسرار على ورد الستار " كلاما نفيس للعارف بالله سيدى القطب الشيخ زروق فى التربية بالاصطلاح والتربية بالهمة والحال ، فقال –رضى الله عنه – ما خلاصته :

((ان المقصود من التربية ، تصفية الذات وتطهيرها ، رعونتها حتى تتحمل الأسرار ، وليس ذلك الا بإزالة الظلام منها ، وقطع علائق الباطل عن وجهتها ، ثم قطع الباطل عنها تارة يكون بصفائها فى أصل خلقتها ، بأن يطهرها الله بلا واسطة وهذه حالة القرون الثلاثة الفاضلة ، الذين هم خير القرون فقد كان الناس فى هذه القرون متعلقين بالحق تعالى ، باحثين عليه ، اذا ناموا عليه ، وإذا استيقظوا ، استيقظوا عليه واذا تحركوا تحركوا به ، حتى ان من فتح الله بصيرته ونظر الى بواطنهم ، وجد عقولهم متعلقة بالله تعالى وبرسوله ، باحثة

عن مرضاتها ، فلهذا كثر فيهم الخير ، وسطع فى ذواتهم نور الحق تعالى ، وظهر فيهم من العلم وبلوغ درجة الاجتهاد ، ما لا يكيف ولا يطاق مع قلة الزمن ، فكانت التربية فى هذه القرون غير محتاج اليها ، وانما يلقى الشيخ مريده ، فيكلمه فى أذنه ، فيقع الفتح للمريد بمجرد ذلك ، لطهارة ذواتهم ، وصفاء عقولهم ، وتشوقها لطريق الرشاد .

أما بعد القرون الثلاثة الأولى ، حيث فسدت النيات والطويات ، وصارت العقول متعلقة بالدنيا ، باحثة عن الوصول الى نيل الشهوات ، صار الشيخ صاحب البصيرة يلقى مريده فيعرفه وينظر اليه ، فيجد عقله متعلقا بالشهوات الباطلة ، ويجد ذاته تتبع العقل فى ذلك ، فتلهو مع اللاهين ، وتسهو مع الساهين الغافلين ، وتميل مع المبطلين ، وتتحرك الجوارح فى ذلك ، حركة غير محمودة ، من حيث أن العقل هم مالكها ، مربوط بالباطل لا بالحق .

فاذا وجده الشيخ على هذه الحال ، أمره بالخلوة وبالذكر وبتقليل الأكل ، وبالخلوة ينقطع عن المبطلين الغافلين ، وبالذكر يزول كلام الباطل واللهو واللعب ، وبتقليل الآكل تقل الشهوة فيرجع العقل الى التعلق بالله ورسوله ، فتطيق ذات المريد حمل الأسرار .

وبقى الأمر على هذه الحال مدة ، حتى اختلط الحق بالباطل والنور بالظلام ، وتصدى للتربية أهل الباطل ، فأمروا أتباعهم بدخول الخلوة ، ولقنوهم الأسماء على نية فاسدة وغرض مخالف للحق ، وقد يضيفون الى ذلك عزائم واستخدامات تقتضى المكر والاستدراج ، مما اضطر سيدى زروق وأشياخه أن ينصحوا لله ورسوله ، فأشاروا على الناس باتباع الكتاب والسنة ففيهما العصمة .

ويقول سيدى عمر الشبراوى – رضى الله عنه – ولم يقصد الشيخ زروق وأشياخه بذلك أن يصرفوا الناس عن التربية الحقيقية ، وحاشاهم من ذلك ، فان نور النبى – صلى الله عليه وسلم – باق ، وخيره شامل ، وبركته عامة الى يوم القيامة .

طريقة التربية :

اذا أراد الله بالمريد خيرا ، فدله على شيخ عارف بالله يربيه فى جنب الله ، فان الطريقة التى تتم بها التربية هى :

أولا – تلقينه العهد وهو قائم على :

أ– التوبة :

يتوضأ المريد ، ويبدأ الشيخ فيلقن مريده صيغة يبدؤها ويرددها وراءه المريد ، وهو واضع يده فى يد المريد قائلا ثلاث مرات (لا الله الا الله ، محمد رسول الله) ، ثم يقول أستغفر الله العظيم ثلاث مرات ، تبنا الى الله ورجعنا الى الله ، وندمنا على ما فعلنا ، وعزمنا على أننا لا نعود الى المعاصى أبدا ، وبرئنا من كل دين يخالف دين الإسلام ، ونشهد ألا اله الا الله ، وأن محمد رسول الله .

ب – العمل بالكتاب والسنة وخدمة الفقراء والمساكين :

ثم يقول الشيخ بعد ويردد المريد ما يقول الشيخ : ((أشهد بالله أنى تائب الى الله تعالى من جميع الخطايا والذنوب ، راغب فى امتثال أوامر رسوله ، مجتنب محارمه ، منيب اليه تعالى ، مواظب على خدمة الفقراء والمساكين ، على قدر الطاقة ، وأن شيخنا وقدوتنا الى الله فلان .

ج – تبشير وانذار :

ثم ينفرد فيقرأ على مسامع المريد قوله تعالى : ((ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما)) .

وكذلك قوله تعالى : ((وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقصوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا)) .

ثانيا – ذكر أسماء الله الحسنى :

ويأمر الشيخ مريده أن يذكر الله تعالى بأسمائه الحسنى التى يعينها له شيخه ، ويرشده فى كيفية ذكرها ، ومراعاة معناها ، بعدد محدود تسقى منه روح المريد ، ثم ينتقل من اسم الى آخر بحسب ارشاد شيخه ، وعادة يكون أكثر ورد المريد من ذكر الله بالليل ليتفرغ المريد فى النهار لمعاشه ، وفى ذلك أمتثال لقوله تعالى :

((ياأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا)) . . ولقوله تعالى ((فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه)) .

وبذلك يجمع المؤمن بين صلاح معاشه وصلاح معاده .

ثالثا – الصلاة على مولانا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – :

وكذلك يأمر الشيخ مريده بكثرة الصلاة على مولانا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – تنفيذا لقوله تعالى : ((ان الله وملائكته يصلون على النبى ، يأيها الذين أمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما)) .

رابعا – استغفار الله تعالى :

ويأمر الشيخ مريده بالاستغفار من ذنوبه السر بالسر ، والعلانية بالعلانية ، ويقول السادة الصوفية ان معصية المؤمن تفترق عن معصية الفاجر من ثلاثة أوجه ، فالمؤمن لا يعزم عليها قبل فعلها ، ولا يفرح بها وقت الفعل ، ولا يصر عليها بعد الفعل ، والفاجر كذلك .

وعند الصوفية ، تعتبر الغفلة عن الذكر ذنبا يستغفرون الله منه ، كما أنهم يرون أن الاعجاب بالعمل الصالح ذنب يستغفرون الله منه ، ولذلك قالوا : ((شتان بين تائب يتوب من الزلات ، وتائب يتوب من الغفلات ، وتائب يتوب من رؤية الحسنات)) .

كذلك هم يقولون : ((ان من يترك الذنب خوف العقاب يكون تائبا ، ومن يتركه حياء من الله يكون منيبا ، ومن يتركه تقديرا لجلال الله وهيبته يكون أوابا .

خامسا – الصحبة :

ويشجع الشيخ مريده على صحبته ، فيجتمع المريد مع المريدين الآخرين ، في أوقات معينة مع الشيخ عنده ، أو عند أحد المريدين ، فيعلمهم الشيخ من أمر دينهم ما يجهلون ويعلمهم آداب السلوك ، وخفايا الآفات النفسية ، ويدلهم بتجربته على موارد الاحسان ، ويبعث فيهم الهمة ، كل حسب استعداده ، فتسقى أرواحهم من روحه ، وتستنير قلوبهم من قلبه ، وتتطهر خواطرهم من طهارته فتبرأ نفوسهم من خللها وعللها شيئا فشيئا .

والنفس لطيفة مودعة في قطب الانسان الجسمانى ، وهى محل الأخلاق الشيطانية المذمومة ، أما الروح فهى محل

الأخـــلاق الملائكيـــة المحمـــودة ، فـــاذا أطلقـــت الـــنفس ، فـــالمراد بهـــا الأمـــارة بالســـوء ، وســـميت بـــذلك لأنهـــا تـــأمر بعمـــل الســـوء وهـــى كشـــيطان لهـــا ســـبعة رؤوس : الشـــهوة ، والغضـــب ، والكبـــر ، والحســـد ، والحـــرص ، والبخـــل ، والريـــاء . . فمـــن جـــرد عليهـــا ســـيف ((لا الـــه الا الله)) نجـــا منهـــا فتتصـــف باللوامـــة ، فـــاذا رأت الحـــق تعرفـــه ولا تتبعـــه ، لأن جنودهـــا اللوم والهوى والمكر والعجب والظلم والكذب ، فمن حاربها باسم الذات العليا أى ((الله)) نجا منها ، فتتصف بالملهمة كما قال تعالى ((فألهمها فجورها وتقواها)) . وجنودها التوبة والصبر والتحمل ، وحالتها المحبة ومفتاحها اسمه تعالى ((هو)) ، فاذا ألهمت تقواها ، طلع عليها الفجر ولاح ، فصارت مطمئنة بقضاء الله تعالى راضية بما يصدر عن الله تعالى ، مرضية عند الله تعالى ورجعت الى عبادة الله تعالى ، بعد دخولها مشاهدة الله تعالى .

(للاستزاده يراجع كتاب تنوير الصدر على حزب الله للعارف بالله سيدى الشبراوى – رضى الله عنه –)

ويقول العارف بالله سيدى المرسى أبو العباس – رضى الله عنه – : ان ابراهيم سمى فتى لأنه كسر الأصنام ، فهو الفتى الخالد – عليه السلام – وجد أصنام حسية فكسرها

وأنت لك أصنام معنوية ، فان كسرتها كنت فتى ، ولك اصنام خمسة وهى : النفس والهوى والشيطان ، والشهوه ، والدنيا . . ولست الفتوة بالماء والملح (لعله يقصد قوة الجسد) انما الفتوة بالإيمان والهداية ، قال تعالى : ((انهم فتية آمنو بربهم وزدناهم هدى)) . .

ويقول كذلك –رضى الله عنه – : اذا أتانا مريد له شيء من الدنيا ، لا نقول له أخرج عن دنياك وتعالل الينا ، ولكن ندعه حتى ترسخ فيه أنوار المعرفة ، فبكون هو الخارج عن الدنيا بنفسه ، ومثل ذلك مثل قوم ركبوا سفينة ، فقال لهم رئيسها غدا تهب ريح شديدة لا ينجيكم منها الا أن ترموا ببعض أمتعتكم فارموا بها الآن ، فلا يسمع أحد قوله ، فاذا هبت العواصف كان الكيس من يرمى متاعه بنفسه ، كذلك اذا هبت عواصف اليقين يكون المريد هو الخارج عن الدنيا بنفسه .

ويقول أيضا رضى الله عنه : ان الله لما خلق الأرض ، اضطربت : فأرساها بالجبال ، فقال عز وجل ((والجبال أرساها)) وكذلك لما خلق الله النفس ، اضطربت ، فأرساها بجبال العقل . فأى عبد توافر عقله ، وأتسع نوره ، نزلت عليه السكينة من ربه . فسكنت نفسه عن الأضطراب ، ووثقت بولى الاسباب ، فكانت مطمئنة أى ساكنة لاقداره ، ممدودة بتأييده وأنواره ، حائدة عن التدبير والمنازعة للمقادير ، اطمأنت لمولاها لعلمها أنه يراها ، ((أو لم يكف بربك انه على كل شيء شهيد)) فاستحقت ان يقال لها ((يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى)) .

أما شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى طيب الله ثراه ، فيقول فى النفس وتراجعها : النفس اذا سبحت عميت ، وفسرها رضى الله عنه بما أوردته داخل الاقواس (أى اذا سبحت فى الدنيا عميت فى الآخرة) ، فان عميت غفلت (فان عميت غفلت عن ذكر الله) : فاذا غفلت شردت (أى عن الحق) . فان شردت بدأت (أى فى الشر وطلب الدنيا) ، فان بدات دابت (أى زادت فى الطلب) وان دابت نأت (أنأت عن الخير) ، فان نأت شربت (أى شراب الهالكين) فان شربت سكرت (أى بحب الدنيا) ،

فان سكرت طربت (أى باللهو) ، فان طربت طارت (أى الى المهاوى) ، فان طارت سارت (أى الى حيث لا يعلم مصيرها) ، فان سارت فاحت (أى أعمالها) . فان فاحت ناحت (أى من الخسران) فان ناحت شكت (أى مما حل بها) ، فان شكت أوبقت (أى غيرها) فان أوبقت باءت (أى بالخسران) ، فان باءت شطحت (أى تخبطت) ، فان شطحت نطحت (أى لعدم اهتدائها) ، فان نطحت جرحت (أى أدمت النفوس) فان أدمت قتلت (أى غيرها) ، فان قتلت أجرمت ، فان أجرمت طغت ، فان طغت بغت ، فان بغت آثرت (أى الحياة الدنيا) فان آثرت هزمت (أى بعدت عن العافية) ، فان هزمت صاحت (أى راحت تلقى حتفها) ، فان راحت وقعت (أى فى الحساب) . فان وقعت ، فطنت (أى الى ظلمها) : فان فطنت ندمت (أى حيث لا ينفع الندم) ، (فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هى المأوى) .

أما عن الروح : فقد قال رضى الله عنه (وفسره ايضا بما اوردته بين الأقواس) :

الروح اذا سبحت نظرت (أى تفكرت) ، فان نظرت ذكرت (أى نظرت فى ملكوت السماوات والأرض (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض) ، فان نظرت ذكرت (أى الصانع) ، فاذا ذكرت بدأت (أى فى ذكر أسمائه تعالى) ، فاذا بدأت دأبت (أى على الذكر) ، فان دأبت عرفت (أى حلاوة الذكر) ، فان عرفت شربت (أى من شراب الذاكرين) ، فان شربت شكرت (أى مولاها على الهداية) فان شكرت سكرت (أى من لذة الذكر) ، فان سكرت طربت (أى من لذة الأحوال) ، فان طربت طارت (أى وجدانا) ، فان طارت سارت (أى فى سبيل السوى) فان سارت باحت (أى بما يعتريها) ، فان باحت فاحت (أى

رائحتها ، فان فاحت ناحت (أى على ما فرط منها) ، فان فاحت راحت (أى تتخبط) ، فان راحت فاءت (أى لا تدرى) فان فاءت باءت (أى الى أمر الله) فان باءت تابت (أى بنعمة الله) ، فان تابت طابت (أى من الذنوب)، فان طابت غابت (أى فى سبيل الاستقامة) ، فان غابت فطنت (أى لا تميل لغير الله) ، فان فطنت عادت (أى لمعرفة الصواب) ، فان عادت درست (أى طلبت من الله المعونة فدرست العلم) فان درست علمت (أى حتى تصدر عن الحق) ، فان علمت وقفت (أى على الحدود) ، فان وقفت شخصت (أى الى الله بحق) ، فان شخصت خافت (أى منه سبحانه) ، فان خافت اطمأنت (يا أيها النقس المطمئنة) ، فان أطمأنت لامت (أى على الماضى وخافت للرجوع اليه) ، فان لامت رجعت (أى الى ربها بثبات وصدق) ، فان رجعت رضيت (أى بربها) فان رضيت فازت (أى مرضية) فان فازت دخلت (أى فى عباد الله) فان دخلت درجت (أى فى العباد) ، فان درجت عبدت (أى عبادة حقه) ، وان عبدت استقرت (أى فى الجنة) والجنة هى المأوى (ولمن خاف مقام ربه جنتان) .

وقد نبهنا أمامنا الشافعى رضى الله عنه الى أهمية كلمتين بقولهما : لسادة الصوفية ، فقد قال رضى الله عنه صحبت الصوفية فأخذت عنهم كلمتين وهاتان الكلمتان هما :

أ) نفسك ان لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل .
ب) الوقت كالسيف ان لم تقطعه قطعك .
ونأخذ من هاتين الكلمتين فائدتين :

الفائدة الأولى :

اننا لا نترك انفسنا تشتغل بباطل الحياة الدنيا وهى فانية ، بل يجب أن نصرفها الى الاشتغال بالحق . وذلك بتوجيهها الى

تقوى الله فى السر والعلانية ، ويقول السادة الصوفية ان قوله تعالى ((ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم واياكم ان اتقوا الله)) . هو القطب الذى يدور عليه القرآن الكريم كله .

الفائدة الثانية :

أن الاوقات تمضى سراعا : وأعمارنا فى الدنيا تنتهى الى غير رجعة ، فيجب أن ننتهز فرصة الاعمار فى كسب طاعة الله تعالى ، قبل أن تفوتنا الطاعة بانطواء الأجل ، فنندم حيث لا ينفع الندم .

وقد جعل الله الاجل من غيبه ، ليكون المؤمن على حذر من نجاة الموت ، فلا ينسى فى الدنيا نفسه ، وقد نهاه الله عن نسيانها فقال جل وعلا ((يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون . ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم اولئك هم الفاسقون)) أى انساهم النظر اليها ، والعناية بمآلها ، فلم يتقربوا الى الله بالطاعات التى أمرهم بها وحضهم عليها وخلقهم لها .

ويقول السادة الصوفية ان تسويف الأعمال من نسيان النفس ، لان الإنسان لا يدرى متى يفاجأه أجله ((وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت ان الله عليم خبير)) وقد بصر الله عباده فى الدنيا بكلام على وعربى مبين ، فقال تعالى فاتحا لهم أبواب مغفرته ورحمته : ((قل يا عبادى الذين اسرفوا على أنفسهم لا تقطنوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم . وانيبوا الى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون . واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله وان كنت لمن

الساخرين أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين . أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين)) .

والقرآن كله قائم على تقوى الله ، والتحذير من أمر الآخرة ، وقد بلغ الرسول صلى الله عليه وسلم ما انزل اليه من ربه ، وفصل فى سنته ما أجمله القرآن الكريم ، كما انه صلى الله عليه وسلم كان الأسوة الحسنة فى التطبيق الاكمل ، ولا عذر لمتخلف عن اتباعه والتأسى بأقواله وافعاله وأحواله ، وقد جعل الله اتباعه علامة محبته تعالى فى قوله تعالى : ((قل ان كنتم تحبون الله فأتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم)) .

فكما ان كسب المعاش لازم فى الحياة الدنيا ، فكذلك كسب المعاد لازم فى الحياة الاخرى ، واننا بحمد الله مؤمنون بالبعث بعد الموت .

ولا يكسب المؤمن المعاد الا بالتقوى ، وبقى أن نعرف كيف نكسب التقوى .

طريق التقوى :

أرشدنا السادة الصوفية انه اذا أراد المؤمن أن يكون من خواص عباد الله ، وجب ان يشحذ همته فى طلب الله تعالى ما وسعه الجهد ، لان أمر الآخرة جد لا هزل فيه .

فان سألتم ، كيف يشحذ المؤمن همته فى طلب الله ؟ . قالوا : يأخذ الهمة عن أهل الهمة لان فاقد الشئ لا يعطيه .

فان قلت لهم ، ومن أهل الهمة هؤلاء ؟ . قالوا : هم الصوفية الذين مر عليك وصفهم ، وهم الذين قال فيهم الامام على كرم الله وجهه :

((هم الذين نظروا الى باطن الدنيا . اذا نظر الناس الى ظاهرها . واشتغلوا بآجلها اذا انشغل الناس بعاجلها . فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم .وتركوا منها ما علموا أنه سيتركهم . ورأوا استكثار غيرهم منه استقلالا . ودركهم لها فوتا . اعداء ما سالم الناس . وسلم ما عادى الناس . بهم علم الكتاب . وبه علموا . وبهم قام الكتاب . وبه قاموا)) .

ويرى الامام الغزالى ، من أعلام القرن الخامس ، رضى الله عنه أنه أذا أراد المؤمن تربية نفسه فى جنب الله . لزمه أن يتبع طريق الصوفية الذى اتبعه هو عن اقتناع بأنه أقوم طريق الى الله ، وهاك ما قاله فى هذا الشأن فى كتابه ((المنقذ من الضلال)) .

((لما فرغت من العلوم . أقبلت بهمتى على طريق الصوفية وعلمت أن طريقتهم انما تتم بعلم وعمل ، وكان حاصل عملهم قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة ، وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها الى تحلية القلب عن غير الله تعالى . وتحليته بذكر الله .

((وظهر لى أن اخص خواصهم ، ما لا يمكن الوصول اليه بالتعليم . بل بالذوق والحال وتبدل الصفات ، وكم من الفرق بين أن يعلم الانسان حد الصحة وحد الشبع واسبابهما وشروطهما ، وبين أن يكون صحيحا وشبعانا .

((وكان أن حصل معى من العلوم التى مارستها ، والمسالك التى سلكتها فى التفتيش عن صنفى العلوم الشرعية والعقلية ، ايمان يقينى بالله تعالى ، وبالنبوة ، وباليوم الآخر ، فهذه الاصول الثلاثة من الايمان ، كانت رسخت فى نفسى ، لا بدليل معين محرر ، بل بأسباب وتجارب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها .

وكـــان قـــد ظهـــر عنـــدى ، انـــه لا مطمـــع لـــى فـــى ســـعادة الآخـــرة الا بالتقوى ، وكف النفس عن الهوى ، وان رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا ، بالتجافى عن دار الغرور ، والانابه الى دار الخلود ، والاقبال بكنه الهمه على الله تعالى ، وأن ذلك لا يتم الا بالاعراض عن الجاه والمال والهروب من الشواغل والعلائق .

((ثـــم لا حظـــت احـــوالى ، فـــاذا أنـــا مـــنغمس فـــى العلائـــق ، وقـــد احـــدقت بـــى مـــن الجوانـــب ، ولاحظـــت أن اعمـــالى ، واحســـنها التـــدريس والتعلـــيم ، فـــاذا أنـــا فيهـــا مقبـــل علـــى علـــوم غيـــر مهمـــة ولا نافعـــة فـــى طريق الآخرة)) .

((ثـــم تفكـــرت فـــى نيتـــى فـــى التـــدريس ، فـــاذا هـــى غيـــر خالصـــة لوجـــه الله تعـــالى ، بـــل باعثهـــا ومحركهـــا طلـــب الجـــاه وانتشـــار الصـــيت ، فتيقنت انى على شفا جرف هار ، وانى قد اشفيت على النار ، ان لم اشتغل بتلافى الاحوال)) .

((فلـــم ازل اصـــمم علـــى الخـــروج مـــن بغـــد اد ، واقـــدم فيـــه رجـــلا واؤخر عنه أخرى ، لا تصدق لى رغبة فى طلب الآخرة بكرة ، الا ويحمل عليها جند الهوى حملة فتفتر عشية ، فصارت شهوات الدنيا تجاذبنى بسلاسلها الى المقام ، ومنادى الايمان ينادى الرحيل الرحيل : فلم يبق من العمر الا القليل . وبين يديك السفرالطويل)) .

((فســـقط بالكليـــة اختيـــارى . والتجـــأت الـــى الله التجـــاء المضـــطر الـــذى لا حيلـــة لـــه ، فأجـابنى الـذى يجيـب المضـطر اذا دعـاه ، وســـهل على قلبى الأعراض عن الجاه والمال والأولاد والأصحاب)) .

((وعلمـــت يقينـــا ، أن الصـــوفية هـــم الســـابقون لطريـــق الله خاصـــة ، وأن ســـيرتهم احســـن الســـير ، وطـــريقهم اصـــوب الطـــرق ، واخلاقهـــم أزكـــــــــــــــــــــى الأخـــــــــــــــــــــلاق)) .

بل لو جمع عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ، ليغيروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه . لم يجدوا اليه سبيلا)) .

((فان جميع حركاتهم وسكناتهم ، فى ظاهرهم وباطنهم ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة وليس وراء النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به)) .

((وبالجملة فماذا يقول القائلون فى طريقة أولها استغراق القلب بالكلية بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية فى الله ، وما قبل ذلك كالدهليز للسالك)) .

هذا وقد هجر الامام الغزالى العراق الى الشام ، وهى هجرة فى سبيل الله كما رأيت . ولما تصوف وأقبل بهمته على الله . وصل الى مقام قال فى وصفه : يضيق نطاق النطق عنه وكل ما أقوله لكم :

فكان ما كان مما لست اذكره فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

وقد رآه بعض معارفه ، فوجده غير ملابس العلماء بملابس بسيطة مما يلبسه المتقشفون من الصوفية ، فقال له ما هذا ؟ . فكان جواب الامام الغزالى :

هجرت هوى ليلى وسعدى بمعزل
وعدت الى مصحوب أول منزل
ونادت بى الاشواف مهلا فهذه
منازل من تهوى رويدك فانزل

وانما ذكرت للقراء الاعزاء ما كان بين الامام الغزالى والتصوف ، لان الامام الغزالى حجة بين العلماء ، لانه درس من العلوم العقلية والشرعية ما أهله لأن يكون اماما مرموقا فى زمانه من أئمة العلم ، ولذلك تصدى للرد على الفلافسة فى الشبه التى أثاروها لأنه

كان قد درس الفلسفة وتبحر فيها ، ولكنه نجا من شرها بفضل الاسلام الذى أمن به اتباع الخواص الذين ذاقوا طعم الايمان ونالوا من فضل الله مقام الاحسان وهو أعلا مراقى الدين ، والعارفون يعتبرونه - رضى الله عنه - مجدد القرن الخامس الهجرى .

وانت ترى من ذلك أن العلم ليس كافيا وحده للتربية فى جنب الله ، لا ولا الفلسفة التى يظن أهلها انهم على شىء ، كما ان التطبيق العادى لاحكام الشريعة لا يكسب صاحبه درجة الخواص ، بل لا بد من عمل يقطع به السالك عقبات النفس ، والتنزه عن أخلاقها المذمومة ، وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها الى تخلية القلب عن غير الله تعالى ، وتحليته بذكره الله ، كما أرشدنا الامام الغزالى رضى الله عنه .

والتجربة العملية التى وقعت معى خير شاهد على صدق كلامه ، فانى بعد ان تخرجت فى كلية التجارة ، تمنيت على الله أن يدلنى على مرب صادق يزكينى فى دينى زكاة الخواص ، فأجابنى الذى بعلم ما تكن الصدور ، ويسر لى بآية غريبة ربانية ، ألاتصال برجلين من العارفين بالله ، أخذا بيدى فى طريق الآخرة يباركانى فى مسيرى الى الله ، وعلمانى من أمور دينى ما كنت أجهلها واذا فانى من حلاوة الايمان ما أعتز به ، وأعترف بفضلهما فيه وذلك رغم انى لم أبلغ من الهمة ما بلغاه ، ولا من الطريق ما قطعاه ، ولكن قصرت عن خطاهما خطاى ، فأنى أرجو أن أكون سالكا سبيلها ، ذائقا من مذاقها القوى ، وقليل من مذاق الايمان كثير فى ذاته ، وليس على الله بمستنكر أن تلحظنى فيما بقى من عمرى عنايته ، فأصل الى ما وصلا اليه ، وان أبطأ سيرى ، وأسرع غيرى ، وهنيئا لمن جرت لهم السعادة فى سابق الازل .

وهـــذان المربيـــان ، والمرشـــدان الزكيـــان . والاســـتاذان العارفـــان والوليـــان المباركـــان . والقطبـــان النيـــران ، همـــا ســـيدى الشـــيخ عبـــد الســـلام الحلـــوانى وســـيدى الشـــيخ علـــى عقـــل طيـــب الله ثراهمـــا ، وجزاهمـــا الله عنـــى وعـــن المريـــدين المنتفعـــين معـــى مـــن صـــحبتهما خيـــر ما يجزى الائمة الاتقياء عن تلاميذهم السالكين .

وهما من خلفاء قطب عصره ، وامام وقته ، من عقد الله له لواء المجد فى سماء الحقيقة ، ليقود الجمع السعيد الى بساط العبودية والتحقق ، الشريف المختار من المختارين ، والحسينالطاهر المطهـر . سـيدى الغـوث الحـاج محمـد أبـو خليـل ، وصـاحب الطريقـة الخليليـة ، الـذى سـكن ضـريحه الأنـور بعـد أن غـرس الهـدى فـى القلـوب ، فطـاب غراسـه ، واينعـت ثمـاره فجنـى جناهـا الخلـف الـذين ادركـوا حلفـاءه . ومـنهم شـيخى هـذين ، وحقـا مـا يقولـه السـادة الصـوفية : لـيس الشـيخ مـن حيـا فـى نفسـه ، انمـا الشـيخ مـن حيـا به غيره .

وانـى منـذ ربيـع الأول ١٣٨٥ أنشـر فـى مجلـة ((منبـر الاسـلام)) الغـراء سلسـلة عنهمـا بعنـوان (الصـوفية فـى الهـامهم) ، لينتفـع القـراء مـن ارشـادهما وآدابهنـا كمـا انتفعـت ، وعلـم القلـوب علـم ينتفـع بـه ، ولا ينقطـع ثوابـه عـن صـاحبه ، ولـى أجـر المناولـة والدلالـة عليـه ان شاء الله . والحمد على ذلك .

وسـيدى العـارف بـالله الشـيخ علـى عقـل ، العـالم الربـانى الملهـم بشـعر الحكمـة ، تتلمـذ فـى الطريقـة الخليليـة علـى يـد العـارف بـالله سـيدى الشـيخ عبـد السـلام الحلـوانى فـى حيـاة القطـب الكبيـر سـيدى الحـاج محمـد أبـى خليـل ، وكـان رضـى الله عنـه قـد أذن فـى حياتـه لسيدى الشيخ عبد السلام بالدعوة والارشاد فى الطريقة ، وكان ينزله منزلة خاصة ويقول له على ملأ من الاتباع (والله العظيم

انت قطب انت قطب) ، كما كان يرحب به بينهم ، ويقول له على مسمع منهم : اهلا بالولى الكامل . وكان يزوره فى مناطق دعوته . فتقام بين يدى الشيخ الاكبر محافل الطاعات ومجالس الذكر ، فيشم المريدين فيها روائح الجنة ، ولا زالت ذكرى تلك المحافل على السنة الثقاة من احباب الله وعشاق الحضرة العلية . وكم تيقظت فيها قلوب غافلة ، وكم رويت فيها قلوب كانت ظامئة ، وقد كان لى حظ التعرف الى شيخى الجليلين فى محفل أقيم فى ذكرى مولد السيدة زينب بنت الامام على رضى الله عنهما وعن ذويهما فى سنة ١٩٢٩ ، فأخذت الطريق عن سيدى عبد السلام . فكان ذلك من سعادتى المخبوءة ، التى سعدت بها ببركة سيدتى صاحبة الذكرى .

وقد بارك الله جهد استاذى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى ، فنشر الهدى فى كثير من البلاد والقرى . وفى مصر والاسكندرية ، وأسعدنى الله بصحبته خمسة عشر عاما . وانى اعتبرها أسعد أيام حياتى ، فكم حبانى فيها بعطفه الروحى . وكم أدبنى وهذبنى ، وكم نصحنى وأرشدنى ، وكم دعا لى بخير ، وكم سره سروري ، وكم باركنى ، وكم صحبته فى أسفاره ، وله فى كل ذلك فضل البداية ، وعلى دوام الشكران .

وكاتبته رضى الله عنه من القاهرة . وكاتبنى من الاسكندرية . ثم نقل الى القاهرة وسكن شبرا ، فلازمته عن قرب . وكنت لا أستطيع التخلف عن رحابه ، لارتباط روحى بروحه ، ومن سعادتى المزدوجة أن العارف بالله سيدى الشيخ على عقل سكن القاهرة ، قبل أن يعين أماما لمسجد المواساة بالاسكندرية ، فدفعنى اليه سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه ، فأخذت عنه الفقه والحديث والقراءة ، وعهد الى أستاذى العارف بالله الشيخ على عقل أن ألقى على أهل قريتى (ملاطية مركز

مغاغة محافظة المنيا ، دروسا فى الفقه المالكى والحديث النبوى فى المسجد ، وقد تهيبت التدريس لقصورى يومئذ فى هذا المجال ، فشدد على أستاذى رضى الله عنه وقال لى بالحرف ((أنت مالك)) ، فأيقنت انه أمر طريقى ، وان أسرار مشايخى وبركاتهم ستصاحبنى ، فانتفعت بحمد الله ، وأرجو أن أكون قد نفعت غيرى .

وقبل انتقال شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى (١٠ أكتوبر ١٩٤٤) ببضعة أشهر ، رسم لنا رضى الله عنه نظاما يجمع شمل اتباعه ، وينظم جماعتهم ، وجعل لهم لجنة عامة كان لى باختياره شرف عضويتها .

وبعد انتقاله رضى الله عنه لدار الرضوان ، اختارت اللجنة العامة نجله المبارك العارف بالله السيد / أحمد عبد المنعم عبد السلام الحلوانى خليفة لوالده ، وهو بحمد الله عالم عارف ، وملحوظ من طفولته كما مر عليك ، وتشهد تآليفه النافعة وهى كثيرة . بسعة علمه وادراكه والهامه ، وقد قرر الازهر الشريف شراء عدد منها لمكتباته . كما قررت ذلك أيضا وزارة ا لاوقاف

وقد فقدت اللجنة العامة ركنا من أركانها ، وعلما خفاقا من أعلام الصوفية فى عصرنا وهوالعارف بالله سيدى الشيخ على عقل (توفى الى رضوان الله فى ٢٤ مارس ١٩٤٨) ولكن كنا قد جمعنا له كنوزا من الحكم الصوفية العاليه ، التى آتاه الله أياها فى الهامه شعرا . وأخرج له العارف بالله السيد /أحمد عبد المنعم الحلوانى ديوانا بأسم " السمو الروحى فى الادب الصوفى " وتولى شرحه شرحا يشهد بذوقه العالى وعلمه النورانى ، جزاه الله عنا خيرا . وهو مطبوع بمطبعة الحلبى فى سنة ١٩٤٩ : وكان من توفيق الله لى ، انى تنبهت لأهمية تلك الحكم ، فعنيت

بتدوين بعضها ، وبارك الفكرة سيدى عبد السلام الحلوانى ، وشجعنى فيها ، وكنت فى نشأتى احفظ ما اكتبه واسمعه لسيدى الشيخ على عقل ، وأمزح معه قائلا : شاء الله أن يكون لكل شاعر راو ، فكان من حظى أن أروى شعرك وأسبق فى ذلك من سبقونى فى سلوك الطريق ، وأضيف :

شعر قيس عبقرى خالد ليس كل الشعر ترويه القرون

فيبتسم رضى الله عنه ويدعو لى ، وكنت اذا تخلفت عن مجلسه ليلة وقابلته بعدها يقول لى : أمس كان الالهام غزيرا متدفقا ، وكانت تحتاجك فى الكتابة .

وكتب له بعدى وبتشجيعى الاخوان الفاضلان الصالحان السيد/ كامل عبود وابنه المرحوم كمال عبود ، لأن شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام لفت نظرى الى موالاة الكتابة ، وكنت قد توقفت عنها سنوات ، اكتفاء بما كان تحت يدى ، وباشارة خفيت على (وظهرت لى فيما بعد) أنها الى قرب وفاة صاحب الالهام رضى الله عنه .

وفى نيتى أن أجمع فى النهاية ما نشر بمجلة منبر الاسلام فى كتيب ، لاسهل على القارئ الرجوع اليها عند الاقتضاء ، والله ولى التوفيق .

نظام الطريقة الخليلية :

وتقوم الطريقة الخليلية على اتباع الكتاب والسنة ، وذكر الله تعالى بثلاثة عشر اسما من أسمائه الحسنى ، مع مراعاة معناها ، ويذكر كل منها مائة الف مرة ، ثم ينتقل المريد الى الاسم الذى يليه وهكذا ، حتى اذا فرغ منها ، أعادها ولا يحسب العدد الا ليلا ولا يشترط فيه كل ليلة حد أدنى أو أعلا فذلك متروك لتوفيق الله والجد فى العمل لوجهه تعالى .

امـــا فـــى النهـــار فيكســـب المـــؤمن عيشـــه ، فـــان وجـــد فراغـــا صـــلى علـــى مولانـــا رســـول الله صـــلى الله عليـــه وســـلم بالصـــيغة الـــواردة فـــى الطريقـــة ويصلى عليه بعد كل صلاة ثلاث مرات بصيغة اخرى يراها القارىء فيما بعد ، مع أسماء الله الحسنى وشرحها ، وكذلك يستغفر المريد ربه بأية صيغة وخاصة ما ورد فى السنة النبوية .

هـــذا وللطريقـــة الخليليـــة فـــروع اخـــرى غيـــر فـــرع ســـيدى عبـــد الســـلام الحلـــوانى ، وتجتمـــع كـــل الفـــروع علـــى كلمـــة الحـــق ، واتبـــاع المنهاج الذى رسمه صاحب الطريقة القطب الكبير سيدى الحاج محمد أبو خليل رضى الله عنه وأرضاه ، وجمعنا به تعالى فى مستقر رحمته .

وقـــد كـــان رضـــى الله عنـــه ، داعيـــا الـــى الله تعـــالى دعـــوة خالصـــة لوجهـــه الكـــريم ، ورأى اتباعـــه مـــن صـــدق دعوتـــه ، وصـــفاء ســـريرته ، وســـعة فيضـــه ، مـــا ملـــك قلـــوبهم ، وبهـــر عقـــواهم ، وقـــد وصـــفه المغفـــور لـــه الشـــيخ عبـــد البـــارى الشـــرقاوى وهـــو مـــن علمـــاء الأزهـــر ، ومـــن السادة الاشراف ، فكان مما قاله فى شيخنا الكبير :

انما الشـيخ كالسـماء مقاما
بحسـب المرء افقها منتهاهـا
فيراها محـدودة بحـدود
لو أتاها لما رآهـا وتاهـا
ورأى فوقـه السمـاء كما كانت
وبانت له حدود سـواهأ
من ير الشـيخ فى علو مقـام
وجلال وهيبـه يلقاهـا

لم ير العـارف الـولى ولكن
كرة العالم العظيـم رآهـا

وأسماء الله الحسنى : التى تذكر فى طريقة شيخنا هى :

الاسم	المعنى
١- لا اله الا الله	لا معبود بحق الا هو
٢- الله	علم على الذات العلية
٣- هو	حاضر لا يغيب
٤- حى	دائم الحياة
٥- واحد	لا ثانى له
٦- عزيز	لا نظير له
٧- ودود	كثير الود لعباده
٨- حق	ثابت لا يتغير
٩- قهار	يقهر ولا يقهر
١٠- قيوم	قائم بأسباب مخلوقاته
١١-وهاب	كثير العطاء
١٢- مهيمن	مطلع على افعال مخلوقاته
١٣- باسط	يبسط الرزق لمن يشاء من عباده

ويذكر المريد الاسم بلسانه ، ويراعى المعنى بقلبه ، فيترقى قلبه بأنوار الذكر ، عطاء من المذكور سبحانه ، فيترقى من ذكر اللسان الى ذكر القلب وشاء الله جلت حكمته ان ينتفع القلب من فعل الجوارح ، كما تنتفع الجوارح من انوار القلب ، ويعلل الامام الغزالى ذلك بقوله : وذلك لسر العلاقة التى بين عالم الشهادة وعالم الملكوت ، فان طاهر البدن من عالم الشهادة ، والقلب من عالم الملكوت بأصل فطرته ، وانما هبوطه الى عالم الشهادة كالغريب ، وكما تنحدر من معارف القلب أنوار واثار الى الجوارح ، فكذلك قد يرتفع من أفعال الجوارح أنوار الى القلب .

وصيغة الصلاة على مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم التى تتلى بالنهار على قدر الطاقة هى :

((اللهم صل على سيدنا محمد عدد ما فى علم الله ، صلاة دائما بدوام ملك الله)) .

وصيغة الصلاة على مولانا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – التى تتلى ثلاث عقب كل صلاة هى :

((اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد ، وعلى آله وصحبه . عدد حروف القرآن حرفا حرفا ، وعدد صفوف الملائكة صفا صفا ، وعدد الرمال ذرة ذرة ، وعدد كل ذرة ألف ألف مرة ، عدد ما أحاط به علمك ، وجرى به قلمك . ونفذ به حكمك . فى برك وبحرك . وسائر خلقك عدد ما أحاط به علمك القديم من الواجب والجائز والمستخيل .

((اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد وعلى ألله وصحبه مثل ذلك)) .

وقد قال سيدنا أبوبكر الصديق رضى الله عنه : الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم أمحق للذنوب من الماء البارد للنار ، والسلام عليه أفضل من عتق الرقاب ، وحب النبى صلى الله عليه وسلم أفضل من ضرب السيف فى سبيل الله .

الاستغفار :

سيد للاستغفار كما ورد فى الحديث النبوى الشريف هى الصيغة التالية :

((اللهم أنت ربى ، لا اله الا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك . وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت . أعوذ بك من شر ما صنعت . أبوء لك بنعمتك على . وأبوء بذنبى . فاغفر لى . فانه لا يغفر الذنوب الا أنت)) .

((وقد ورد فى فضل هذه الصيغة أن من قالها فى النهار موقنا فمات من يومه قبل أن يمسى ، فهو من أهل الجنة ، ومن قالها من الليل وهو موقن فمات قبل أن يصبح ، فهو من أهل الجنة)) رواه البخارى .

ذكر الله كثيرا متفق عليه :

وكل الطرق الصوفية ، من قديم الزمن ، متفقة على مبدأ الاكثار من ذكر الله تعالى ، وانما تختلف فى عدد ما يذكر ، وفى الاسماء التى تذكر ، وان اتفقت غالبها فى الاسماء الثلاثة الاولى ، وقد مر عليك خصائص كل من تلك الاسماء الثلاثة ، اما خصائص غيرها فمذكورة فى فى مطولات كتب الصوفية ، وقد اكتفينا بما ذكرناه خشية الاطالة على القارىء الكريم ، والمهم أن يعلم القارىء العزيز ان الذكر الكثير يورثه أذواق وانوار لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وتنتهى بالسالك الى المحبة الخالصة لله كما سترى فيما يلى ، وحقا ما قاله الساده الصوفية :

والذكر أفضل باب انت داخله لله فاجعل له الانفاس حراسا

وكفى الذاكرين شرفا ان يقول تعالى فيهم (فاذكرونى أذكركم) وكفى شرفا للمحبين ان يقول فيهم (يحبهم ويحبونه) .

ويتعرض أستأذنا العارف بالله السيد أحمد عبد المنعم الحلوانى بارك الله فيه ، الى أثر ذكر الله وصحبه الصالحين فى تربية الوجدان ، وتصفية الخواطر ، فبقول جزاه الله خيرا فى مقدمة كتابى ((المربى)) المطبوع سنة ١٩٤٧ (والذى كتبته فى سيرة والده وشيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه) فيقول ما خلاصته :

((من يوم أن يولد الإنسان فى هذه الحياة ، وهو فى حركة دائبة ، وجسمه يتحرك ، ودمه ينبض ، سواء فى نومه أو صحوه

وروحه فى حركة لا تسكن ، فى الصحو دائبة التفكير ، وفى النوم تسبح فى خيال لا ينقطع)) .

((ومخ الانسان مملوء بالخيال الفكرى ، والحديث النفسانى ، لا يفيق منه الا اذا صار جثة هامدة ، فالحركة الفكرية ديدن كل حى من بنى الانسان)) .

((ومن هذا الشعور يتربى الوجدان ، الذى يتميز به الانسان عن سائر الحيوان ، والوجدان القوى ، له تأثير كبير فى الناس ، وشتى الموجودات فى الخير والشر ، بمقدار ما فيه من قوة وحيوية ، لذلك أرى أن الانسان ابن شعوره ووجدانه)) .

((والشعور يحصل مما يحيط بالانسان من مرئيات الحياة وحاجاتها ، ثم يستعين الانسان بالتفكير ليصل الى غايته وتتربى عاطفته طبقا للرغبات الطيبة أو الأهواء النفسية)) .

((وعند كل رغبة تكثر الخواطر ، ويشتد التفكير ، وهذه الخواطر اما ان يكون مصدرها الهاما من الله لبيان الصواب ، كما قال تعالى ، هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور وكان بالمؤمنين رحيما)) ، أو يكون مصدرها الشيطان لتبرير غايات النفس ، والقلب يصدق هذا أو يكذبه ، وحسبه أن يكتسب عمله مما يملى من ارادته . ومن ذلك تتربى العاطفة الخلقية فأما الى سمو وترق ، واما الى رذيلة وانحطاط من لحظة الى اخرى ، والروح ترقى او تنحط تبعا لسمو العاطفة او انحطاطها)) .

((والخواطر والأفكار تنساب فى روح الانسان وفؤاده انسيابا ، وتنصب انصبابا ، والقلب يفرزها ويأخذ منها ما يريد ، فان تركها الانسان بلا مراقبة ولا تدبير . أصبح كربان السفينة ، الذى تاه فى عباب البحر ، وهام على وجهه على غير هدى حتى يغرق

وقد تهجم الأفكار والخواطر على الانسان هجوما شديدا . وتغذيها رغبات النفس وأحاديث الشيطان ، ويدافعها ، ولكن ارادته تخور أمامها ، ويتبع نفسه هواها فتفسد ملكة وجدانه ، ويتعثر فى أذيال الخيبة ، ويقوى شيطانه عليه ، حتى يصير بلا ارادة ، ويبوء بالخيبة فى الحياتين)) .

((والدواء الناجع ، هو الايمان بالله ، والتعرف اليه ، والتوكل عليه ، حتى يعافيه ببرد الرضا ، ونور اليقين ، والاطمئنان الى حسن المصير ، الذى يتمناه كل حى كتب عليه الموت)) .

((وهذا لا يخالط القلب دفعة واحدة ، ولا يتم له الكمال الا بالتربية والترويض ، ولن تتربى فيه هذه الملكة الا بذكر الله سبحانه وتعالى ذكرا كثيرا ، ومناجاته جل شأنه فى السر والجهر حتى يستقيم الفكر ، ويهدأ السر ، ومن ذلك تقوى ملكة مراقبة الله سبحانه وتعالى ، ويتعود المرء المحافظة على أوامره ، واجتناب نواهيه ، والاطمئنان الى حسن وعده وبلاغ رسله)) .

((وبذلك تقوى ارادته ، وتصفوا أفكاره ، ويهيمن على خواطره ، ويرقى وجدانه ، ويكون شعوره ملكيا ، وضميره حيا ، والا عاد صدره ضيقا ، وتفكيره سقيما ، ولذلك قال تعالى ((ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين)) .

كما قال تعالى : ((ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى)) .

((لذلك استعان أهل التصوف على تربية ملكاتهم بكثرة الذكر ، وراقبوا خواطرهم مراقبة شديدة ، وحاسبوا أنفسهم على كل خاطر ، حتى لايعلق بالقلب ارادة من خواطر السوء ، وروضوا أنفسهم على الطاعة ، وملازمة الصحبة الصالحة ، وحددوا أهدافهما

فى محبة خالقهم والوصول الى رضاه ، وجعلوا كل أمانيهم أن فوزوا بالقربى عند لقاه ، مادام مصيرهم الى حياة غير هذه الحياة والرجوع الى الله .

((يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه)) .

وأيقنوا بقوله تعالى :

((وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون)) .

فاخلدوا الى الحقائق ، وعافوا الضلال ودار الغرور ، وتركوا المظاهر الخادعة الى الحقائق الثابتة ، فارتقوا الى صفات الملائكة ، وبلغ الكثير منهم مرتبة الضمير الحى ، والنفس المطمئنة واستلذوا بمجالسة الله تعاى اذ يقول جل شأنه فى الحديث القدسى ((أنا جليس من ذكرنى)) ، فتعلقوا بحب هذا الشرف السامى ، وأى شرف أعلا من أن يتشرف الانسان بمجالسة خالقه ملك الملوك . لذلك أعتقد أن الصوفى الصادق أسعد أهل زمانه)) .

وقد أصاب استاذنا العارف بالله السيد عبد المنعم الحلوانى كبد الحقيقة ، قال عبادة الله تعالى هى علة وجودنا فى هذه الحياة وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون)) .

والدنيا ممر والآخرة مقر ، وقد قال مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ((خذوا من ممركم لمقركم)) .

ما معنى ذكر الله ؟

وذكر الله اذا اطلق . انصرف الى كل ما يربطك به سبحانه ، فالتفقه فى دين الله ذكر ، واقام الصلاة ذكر ، وايتاء الزكاة ذكر ، وصوم رمضان ذكر ، وحج البيت ذكر ، والنوافل ذكر ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ذكر ، والفتوى فى دين الله ذكر ،

وتلاوة القرآن ذكر ، والأستغفار ذكر ، والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ذكر ، والتهليل والتسبيح والحمد والتكبير والتلبية ذكر . . وهكذا . .

واذا خص ذكر الله ، انصرف الى ذكره تعالى بأسمائه الحسنى ، التى يرشدك اليها شيخك ويعلمك معناها ، ويحدد لك عددها وأوقاتها ، هذا فى الذكر الانفرادى ، وقد تشارك اخواتك الآخرين من أتباعه فى الذكر الجماعى بالصوت المرفوع أو الخافت . ليشد الذاكرون بعضهم بعضا ، والمؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا .

الرد على اعتراضات المعترضين :

ويعيب بعض الناس على الطرق الصوفية أموراكثيرة ، وسأضعها تحت نظر القارىء العزيز مع الرد عليها واحدة واحدة :

١- الذكر بالعدد على المسابيح لم يكن معهودا فى بداية الاسلام :

يعترض على الصوفية فى ذكر الله بعدد معين ، كما يعترض على اتخاذ مسابيح لم تكن معروفة زمن الصحابة .

وردى على ذلك الاعتراض ، أن الفقراء حين شكوا الى مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من أن الأغنياء وجدوا المال الذى يتقربون به الى الله ، وليس فى يدهم مال يتقربون به الى الله ، دلهم مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم أدلكم على شىء ان فعلتموه كنتم مثلهم تسبحون وتحمدون وتكبرون عقب كل صلاة ثلاثا وثلاثين ، فلما سمع أغنياء الصحابة بذلك سبحوا وحمدوا وكبروا عقب كل صلاة ثلاثا وثلاثين مثلهم ، فعاد الفقراء لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا له سمعوا بمقالتك

فعملوا بها ، فقال لهم مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

فهذا نص فى الذكر بالعدد يقر مبدأ الذكر بالعدد : أما المسابح فهى أداة لضبط العدد ، وما الفرق بين أن يعد الانسان على الأصابع أو الحصى أو النوى ، وبين المسبحة المنظومة ، للاستعانة بها فى ضبط العدد ، ثم ان العدد وارد فى الصلوات المفروضة ذاتها ، فهى ثنائية وثلاثية ورباعية ، والطواف حول الكعبة سبعة أشواط ، وكذلك السعى بين الصفا والمروة ، ورمى الجمار . . الخ .

على أن الجلال السيوطى أورد فى بحثه عن المسابح (عن عبد الله ابن الامام أحمد بسنده) أن أبا هريرة – رضى الله عنه – كان له خيط معقود فيه الفا عقدة ، وكان لا ينام حتى يسبح أى بعددها ، كما أورد أبو داود والترمذى وغيرهما عن ابن عمر – رضى الله عنهما ، قال رأيت النبى – صلى الله عليه وسلم – يعقد التسبيح بيده ، وأخرج الترمذى والحاكم عن صفية قالت : دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين يدى أربعة آلاف حصاة أسبح بهن ، فقال ما هذا يابنت حيى قالت أسبح بهن ، فقال قد سبحت منذ قمت على رأسك أكبر من هذا ، قالت علمنى يا رسول الله ، قال قولى سبحان الله عدد ما خلق من شىء وفى الحديث الشريف أيها الناس توبوا الى الله ، فانى أتوب اليه فى اليوم مائة مرة ، ومعلوم أن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم مغفور له فاستغفر ليسن لنا الاستغفار .

وقد قال الشيوخ العارفون : ان السبحة هى سوط الشيطان ، وروى أنه رؤى مع الامام الجنيد – رضى الله عنه – سبحه فى يده حال انتهائه ، فسئل عن ذلك ، فقال شىء وصلنا به الى الله . كيف نتركه ؟

وقوله تعالى (يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا) رحمة واسعة ، فانه أعطى الفرصة مطلقة غير مقيدة للاكثار من ذكره تعالى كثيرا ، ولما جاء القرآن الكريم على وصف المنافقين وصفهم بقلة الذكر ، فقال تعالى (ولا يذكرون الله الا قليلا) .

وقد قلنا فيم تقدم ان التصوف تجربة عملية وعيان ، وقد دلت تجارب الخلف على أن كثرة الذكر فى الأجيال المتأخرة . تكسبهم أنوار السلف الذين كانوا مزدهرين لصفاء فطرتهم ، ونقاء بيئتهم ، وضيق معيشة الاكثرين منهم ، التى كفتهم الافتتان بزخارف الدنيا الفانية ، والاقبال عليها اقبالا يلهى عن الآخرة ، وهى خير وأبقى ، ولقد شاهدت بتجربتى الشخصية أن أكثر الناس (الا من عصم الله) يكون أقوى دينا عندما يكون قليل المال ، فاذا اتسع رزقه فتن وتقلب فى الحظوظ الجسدية التى تورثه الغفلة عن الله .

٢ – ذكر الحلقات

أما ذكر الجماعة الذى يعترض عليه بانه لم يكن معروفا ، فان الصحابة كانوا يجتمعون فى مجلس مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان يذكرهم بالله ، حتى كأنهم يرون الجنة والنار رأى عين ، وهو اجتماع على ذكر الله ، أما ذكره تعالى بأسمائه الحسنى ، فقد ورد فى الحديث الشريف : أذكر الله حتى يقال مجنون .

وكان صلى الله عليه وسلم لا يجلس ولا يقوم الا على ذكر الله ، وقد روى الترمذى أن رجلا قال لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن شرائع الاسلام قد كثرت على ، فأخبرنى بشئ أتشبث به ، فقال صلى الله عليه وسلم – لا يزال لسانك رطبا بذكر الله ، وكل فرد فى حلقة الذكر يرطب لسانه بذكر الله ليخشع قلبه ، وهو اجتماع مباح ، وهو من باب التعاون على البر

والتقوى ، والمؤمن ضعيف بنفسه قوى باخوانه ، ولا تنس أن قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أذكروا الله ذكرا كثيرا) يشير الى معنى الجماعة ، كما لا تنس أن سيدنا موسى عليه السلام طلب أن يشد الله أزره بأخيه هارون عليه السلام ، وعلل طلبه بقوله (واجعل لى وزيرا من أهلى هارون أخى أشدد به أزرى وأشركه فى أمرى كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا انك كنت بنا بصيرا) ثم أنه تعالى قال له ولأخيه عليهما السلام (ولا تنيا فى ذكرى) وأدب الله أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (يا أيها الذين آمنوا اذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم) فأباح مجالس الطاعة ، وأمر بسعة الصدور فيها ، والتراحم فيما بينهم ومجالس الذكر من مجالس الطاعة التى تحفها الملائكة ، ويرضى الله عنها ورسوله – صلى الله عليه وسلم – ورفع الصوت فى الجماعة بطاعة الله محمود ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم – أفضل الحج العج والثج ، أى عجيج الأصوات بالتلبية والذكر وذبح الهدى ، واجتماع الحجاج فى يوم عرفة فى الموقف يدل على استحباب الاجتماع على طاعة الله وذكره ، وقد روى عن جابر – رضى الله عنه – أن رجلا كان يرفع صوته بالذكر ، فقال رجل : لو أن هذا خفض من صوته ، فقال صلى الله عليه وسلم : ((دعه ، فانه أواه)) ، وفى فتاوى ابن حجر رحمة الله : ما اعتاده الصوفية من عقد حلق الذكر بالهجر به فى المساجد لا كراهة فيه .

٣– الانشاد على حلقات الذكر :

ليس المقصود من الانشاد على حلقات الذكر التغنى والتطريب ، بل المقصود شد أزر الذاكرين ، وبعث هممتهم فى طلب الله ، وكانت الابل تحدى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لتجد السير ، حتى لقد قال صلى الله عليه وسلم للحادى : ((رفقا انجشة

بالقوارير)) ، ويقصد عليه الصلاة والسلام السيدات راكبات الابل ، وقد سمع صلى الله عليه وسلم الشعر وأجاز عليه كما سمع الحداء وتطرب أرواح الذاكرين اذا سمعت الحكمة المشوفة الى الله والى رسوله ، وقد قال صلى الله عليه وسلم ((ان من الشعر لحكمة)) . ويقول سيدى العز بن عبد السلام – رضى الله عنه – مبررا الانشاد ، وهو من أجلاء العلماء المشهود لهم بالفضل :

حاد يذكرك العهد القديم وان
تقادم العهد ما المشتاق كالناسى
فليس عار اذا غنى له طربا
يئن بالبأس لا يخشى من الناس

٤ – التمايل والتواجد :

بقى ما يعترض به على التمايل والتواجد ، وقد كانا فى صدر الاسلام ، فقد ورد أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كانوا يتمايلون يمنه ويسرة ، كما ورد فى الحديث أن المؤمن كخامة الزرع تفيئها الريح ها هنا وها هنا .

أما التواجد فقد روى الامام احمد ، عن الامام على بن أبى طالب – رضى الله عنهما – أن سادتنا عليا وجعفر وزيدا قدموا على مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عليه الصلاة والسلام لزيد ((أنت مولاى)) فحجل ، وقال لجعفر : ((أشبهت خلقى وخلقى)) فحجل ، وقال لى : ((أنت منى)) فحجلت (والحجل أن يمشى على رجل واحدة) فهاؤلاء الكرام تواجدوا وحجلوا بين يديه صلى الله عليه وسلم بلا ارادة ، من النشوة التى حصلت لهم ، وما أبدع ما يقوله سيدى أبو مدين رضى الله عنه :

فقل للذى ينهى عن الوجد أهلـــه
اذا لـــم تـــذق معنـــى شـــراب الهـــوى دعنـــا
اذا اهتزت الأرواح شوقا الى اللقـا
تـــرقص الأشـــباح يـــا جاهـــل المعنـــى
أما تنظر الطير المقفص يا فتى
اذا ذكـــر الأوطـــان حـــن الـــى المغنـــى
يفرج بالتغريد مـا بفـؤاده
فتضـــطرب الأعضـــاء فـــى الحـــس والمعنـــى
كـذلك أرواح المحبين يـا فتـــى
تهززهـــا الأشـــواق للعـــالم الاســـنى

أمـــا المـــدعون مـــن الـــذاكرين ، والـــذين يتواجـــدون تمثـــيلا لا حقيقـــة ، فهـــؤلاء ممقوتـــون . لأنهـــم يـــدعون مـــاليس عنـــدهم ، وهـــذا مـــن عمـــل الشيطان .

والقـــرآن الكـــريم أثبـــت للصـــالحين تواجـــدهم ، فقـــال تعـــالى مـــثلا : ((ويخرجـــون للأذقـــان يبكـــون ويزيـــدهم خشـــوعا)) وقـــال تعـــالى ((واذا ســـمعوا مـــا أنـــزل الـــى الرســـول تـــرى أعيـــنهم تفـــيض مـــن الـــدمع ممـــا عرفـــوا مـــن الحـــق)) لا بـــل انـــه تعـــالى ســـجل أن ســـيدنا موســـى خـــر صـــعقا حـــين تجلـــى ربـــه للجبـــل فجعلـــه دكـــا (فلمـــا تجلـــى ربـــه للجبـــل جعلـــه دكـــا وخـــر موســـى صعقا) .

٥- السريانى :

أمـــا الســـريانى الـــذى يجـــرى عفـــوا علـــى ألســـنة بعـــض الـــذاكرين الصـــادقين ، فهـــو مـــن بـــاب فـــيض الكـــأس عنـــد امتلائهـــا ، وقـــد أثبـــت القـــرآن الكـــريم أن للجمـــادات والطيـــر والحيـــوان تســـبيحات ، فقـــال

تعالى (وان من شيء الا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم) . فالسريانى الذى نسمعه من الصادقين العقلاء تسبيح لا نفهمه . ولا يجوز أن نعترض عليه .

٦- الاعتماد على الخواطر القلبية :

فيها الى ما قاله مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم لوابصة يعاب على الصوفية الاعتماد على الخواطر القلبية ، ويستندون ((أستفت قلبك)) . وقوله صلى الله عليه وسلم ((البر ما اطمأنت اليه النفس)) . وانما قال صلى الله عليه وسلم لوابصة ((استفت قلبك)) ، حين رأى قلبه منورا بنور الله ، فليس كل قلب صالحا للاستفتاء . وإنما هى القلوب الطاهرة ، المنيرة المنورة .

على ان الصوفية ، لا يأخذون بالخواطر القلبية اذا تعارضت مع الكتاب والسنة ، ويقولون اذا تعارض كشفك مع الكتاب والسنة ، فاضرب بكشفك عرض الحائط ، وقل ان الله ضمن العصمة فى الكتاب والسنة ، ولم يضمنها لى فى الكشف ، وقد دخل رجل على سيدنا عثمان - رضى الله عنه - وكان قد وقعت منه نظرة على امرأة فى الطريق ، فقال له أمير المؤمنين عثمان : يدخل أحدكم وفى عينيه أثر الزنا ، فقال الرجل متعجبا : أوحى بعد رسول الله يا أمير المؤمنين ؟ قال لا ، ولكنها فراسة المؤمن ، اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله .

٧- حب الصوفية لأولياء الله :

يعترض على الصوفية أنهم يحبون أولياء الله ، ويتبركون بهم ، ويتوسلون بهم الى الله ، أما حبهم للاولياء فبحب الله للاولياء أحبوهم ، لأنه تعالى يقول فى أوليائه (يحبهم ويحبونه) ، فهو اذن حب فى الله يثيب الله عليه ويرضاه ، أما التبرك بهم ، فان الله

بارك بعض الأماكن ، وبعض الأيام ، وبعض الشهور ، فبارك مثلا الكعبة البيت الحرام ، ويوم عرفة ، وشهر رمضان ، وبارك قميص يوسف عليه السلام ، فلما ألقى على وجه أبيه ارتد بصيرا عليه السلام ، وجاء فى القرآن الكريم على لسان سيدنا عيسى عليه السلام (وجعلنى مباركا أينما كنت) وجاء كذلك فى القرآن الكريم أن بركات الله تجرى على آل ابراهيم عليه السلام ، فقالت الملائكة لامراته (أتعجبين من أمر الله ، رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد) ومن بركاته تعالى عليهم رزقها الله ان حملت بعد سن اليأس ، سبحان الله الفعال لما يريد .

وكان الصحابة رضوان الله عليهم ، يتبركون بآثار مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان اذا حلق شعره تقاسموه فيما بينهم ، حتى أنهم كانوا يقترعون على الشعرة الواحدة ، وشرب بعضهم دمه ولم يقبل أن يلقيه على الارض ، وتبرك سيدنا كعب ابن الزهير ببردته صلى الله عليه وسلم ، فرفض أن يبيعها لمعاوية ، وكان على مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم حلة كانت جديدة ، فسأله اياها سيدنا عبد الرحمن بن عوف فأعطاها له ، فلام الصحابة سيدنا عبد الرحمن ، وقالوا له لماذا تسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم حلته وهو لا يرد السائل ؟ فقال انى أود أن أكفن فيها عند موتى ، وكذلك كرم مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدتنا فاطمة بنت أسد (أم الامام على كرم الله وجهه) فكفنها صلى الله عليه وسلم فى قميصه ، واضطجع معها فى قبرها ، ولما سئل فى ذلك قال صلوات الله عليه ((انما البستها قميصى لتكسى من حلل الجنة ، واضطجعت معها ليهون عليها)) .

ويحدث سيدنا أبو أيوب الانصارى (فيما رواه ابن اسحق) ويقول : كنا نصنع له صلى الله عليه وسلم العشاء ثم نبعث به

اليه ، فاذا رد علينا فضله تتبعت أنا وأم أيوب موضع يده فأكلنا منه نبتغى بذلك البركة .

وقد كانت سيدتنا عائشة رضى الله عنها تقول : اذا ذكر عمر طاب المجلس ، ويقول سيدى زروق : وكان شيخنا يقول اذا كانت الرحمة تنزل عند ذكرهم ، فما ظنك بمواطن اجتماعهم على ربهم ، يوم قدومهم عليه بالخروج من الدنيا ، فزيارتهم تهنئة بهم وتعرض لما يتجدد من نفحات الرحمة عليهم فهى مستحبة ، وغير ذلك كثير جدا ،

٨- التوسل بالصالحين :

أما التوسل بالصالحين الى الله ، فلا شىء فيه يخالف التوحيد ، ما دام المؤمن يعتقد أن كل شىء بأمر الله ، وان الله تعالى يكرم البعض بالبعض ، ويعلم البعض بالبعض ، ويرزق البعض بالبعض ، والأسباب تؤتى ثمرتها باذن مسببها سبحانه ، وهو الذى ربط ألأسباب بمسبباتها ، ولقد قال رجل لسيدى الامام جعفر الصادق رضى الله عنه ادع الله ألا يجعل رزقى على أيدى العباد ، فقال الامام الصادق (وهو الذى قال فيه أبو حنيفة ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد) أبى الله عليك ذلك ، أبى الله الا أن يجعل أرزاق العباد بعضهم من بعض ، ولكن أدعو الله أن يجعل رزقك على يد خيار خلقه ، ولا يجعله على أيدى شرار خلقه فانه من الشقاوة .

والذى يضر العقيدة ، أن يعتقد المؤمن أن الولى يملك بذاته نفعا أو ضرا ، وليس فى الصوفية أو العوام أحد يعتقد ذلك ، لأنهم يزورون الأولياء ، ويعتقدون أن الله أماتهم وأقبرهم ، ولكنه باركهم بصلاحهم وتقواهم ، وكان توفيقهم الى الصالحات بعطاء الله وعنايته

ومن عجب أن يقول المعترضون ، أن الكفار تقربوا الى الله بالأوثان ، ثم عبدوا الأوثان ، فأين العبادة من الحب ؟ وأين الأوثان من الأولياء المقربين الذين أحبهم الله وأحبوه ، ووالاهم ووالوه ، وعاشوا موحدين ، وماتوا كذلك ، لأن المعطى سبحانه لا يسترد عطيته ، والتوحيد عطاء الله للموحدين (بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان) .

واذا نحن دققنا النظر ، وجدنا أن هذه الضجة التى يعترض بها على التوسل والمتوسلين ، انما هى ناتجة من سوء ظن بالمؤمنين ، والمؤمنون بحمد الله موحدون والقرآن حاميهم على مر الأزمنة من الزيغ عن التوحيد الخالص ، ومن فضل الله على الأمة المحمدية أن أبقى لها معجزة القرآن الكريم ، وحفظها من التحريف والتغيير ، والقرآن الكريم ناطق بآيات التوحيد الخالص .

ولقد سألنى بعض الناس يوما فى هذه المسألة ، فارتاح لما سمعه منى ، وأذكر أنه كان فيما قلت أن الله لم يخاطب عباده مباشرة ، بل خاطبهم على ألسنة المرسلين من البشر ، فجعلهم وسيلة التبليغ فاذا انا احترمت المرسلين واطعتهم وتبركت بهم ، معتقدا أنهم عباد مكرمون بالرسالة ، فلا يخرجنى هذا التوحيد ، لأن طاعتهم من طاعة الله ، والتبرك بهم من آثار عطاء الله لهم .

وقلت ان المنعم واحد سبحانه ، لكنه جعل لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم من باب السببية انعاما مع انعامه بنص القرآن ، فتعجبوا أن يسمعوا منى ذلك وقالوا ، ماذا تقصد ؟ قلت أن الله تعالى يقول لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم (واذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليه زوجكوواتق الله) ، فالمنعم هو الله وحده ، ولكن لما كان مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم سبب ايمان زيد ، وسبب عتق زيد ،

وسبب زواج زيد ، جعله منعما عليه بأمر الله تعالى . وهما معرضان لا ثالث لهما ، معرض التوحيد وليس مع الله أحد فيه لاوزير ولامشير ولا معين ولا شريك ، ومعرض الأسباب التى قامت بأمره ، فان اعترضنا عليها اعترضنا على آمره وتدبيره .

والذى لا يذوق التوسل لا نلزمه به ، وهو حر فى ألا يتوسل الى الله بأحد ، انما ليس من الحق أو الانصاف فى شئ أن يكفر غيره بالتوسل ، مع أن الله حفظ الغلامين بأبيهما الصالح ، فأوحى للخضر أن يقيم الجدار على الكنز ، وهو ما يفيد انتفاع الحى من ابيه الصالح . وفرض الله على الاحياء أن يصلوا صلاة الجنازة على موتاهم ، مع أن الله قادر على المغفرة بغير دعاء المصلين ، لكن هذا مظهر من مظاهر رحمته تعالى ، يجريها على أيدى البعض للبعض ، وكذلك يسخر الله الملائكة ، فيستغفرون للذين آمنوا (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا ، ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ، ربنا وادخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم انك انت العزيز الحكيم وقهم السيئات ، ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم) .

ونحن لم نر الملائكة بأعيننا ، ولم نسمعهم بآذاننا ، والله تعالى كشف لنا ما حجب عنا ، فلماذا نحجر على فضل الله مع أوليائه ، وقد علم مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم الأعمى الذى فقد بصره أن يسأل الله بحق السائلين عليه والحديث معروف .

والدعاء نفسه الذى ندعو ربنا به ، وسيلة من وسائل الاجابة ، والله يعطى بدعاء ، وبغير دعاء ، لكن الدعاء مظهر مسنون من مظاهر العبودية والافتقار ، ومعلوم أن القلم رفع بما هو كائن

الـــى يـــوم القيامـــة ، ولكـــن جعـــل الله الـــدعاء مـــخ العبـــادة كمـــا جـــاء فى صحيح البخارى .

والمتوســـلون لا يســـألون الله بالطغـــاة الجبـــابرة ، ولا بأغنيـــاء المـــال ، لكـــنهم يتوســـلون اليـــه بمـــن قـــال فـــيهم (يحـــبهم ويحبونـــه) ، وبمـــن قال فيهم (ان أكرمكم عند الله أتقاكم) ، واذا أحب تعالى عبدا أحب ان يكرمه فى زواره ، كما يكرمه فى ذريته بعد موته ، واقامة الجدار ثابتة بنص القرآن الكريم كما تقدم ، وكفى شرفا لأولياء الله أن يقول تعالى فيهم (لهم ما يشاءون عند ربهم) .

وقد جعل الله مولانا رسول الله سبب الهدى ، وان كان الله تعالى هو الهادى ، فقال تعالى (وانك لتهدى الى صراط مستقيم) ومن شاء الله تعالى أن ينفعه السبب هداه بالسبب ، ومن شاء الله أن يضله لم ينفعه السبب ، والفعل لله فى الحالتين ، وفى الحالة الأخيرة قال تعالى (انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) لأنه تعالى يتكلم فى معرض التوحيد ، ولا يجوز الخلط بين معرض الأسباب ومعرض التوحيد وهذا ما يقع فيه المعترضون دون تفرقة بين المعرضين . وأنت لا تقول خلقنى أبى ، وان كان هو سبب خلقك ، ويقول سيدى أبو طالب المكى ((قوت القلوب)) : ان الله تعالى قد أظهرها أسبابا وأثبت نفسه فيها ، فقال تعالى (قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم) ، ثم رفعه وأظهر نفسه فقال تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها) وكذلك قال جبريل (لأهب لك غلاما زكيا) لأن الله تعالى وهب له أن يهب لها فذكر نفسه وهو يشهد ربه ، ومثله قول موسى عليه السلام (لا أملك الا نفسى وأخى) لأن الله قال (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا) وهو فى الحقيقة لا يملك نفسه ولا أخاه ، اذ لا مالك أصـــــــــــــــــلا ألا الله عـــــــــــــــــز وجـــــــــــــــــل .

واستطرد سيدى أبو طالب المكى رضى الله عنه يقول فى ابداع : وكذلك قال سبحانه (اقتلوا المشركين) ، وقال فى مثله من ذكر الواسطة (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم) ثم قال فى التوحيد (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم) ، وقال فى اثبات الأسباب ورفع حفاتفها (وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى) ، ومن شاء تفصيلا أكثر ، فليطلع على كتاب "قوت القلوب " عند كلامه على " اثبات الأسباب والأواسط " .

أما ما قيل من ان الصحابة لم يستسقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم حين حبس المطر ، فان الرد على ذلك أن أمير المؤمنين سيدنا عمر قال : اللهم انا كنا نتوسل بنبيك فتسقينا ، والآن نتوسل بعم نبيك فاسقنا .

ولو أن المعترضين وقفوا عند قول أمير المؤمنين " بعم نبيك " لرأوا أن اختيار سيدنا العباس رضى الله عنه روعى فيه لقرب من مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو فى الواقع توسل بمولانا رسول الله بطريق غير مباشر ، والحكمة ظاهرة واضحة ، فان الاستسقاء له صلاة ، وله دعاء وهى تكاليف شرعية ، لايتصور أن يقوم مولانا رسول الله صلى الله عليه سلم من قبره ليؤديها .

وقد دعا سيدنا العباس ربه متأثرا بحسن ظن المؤمنين فيه ، حتى أنه بكى وهو يدعو ، وما أن فرغ من دعائه حتى استجاب الله له ، ونزل المطر مدرارا ، وسمى بعد ذلك ساقى الحرمين رضى الله عنه .

وقد كان الى جانب سيدنا العباس ـــ رضى الله عنه ـــ كثير من أصحاب رسول الله المكرمين ، لكن فقه سيدنا عمر دعاه أن يستسقى بأقربهم الى مولانا رسول الله ـــ صل الله عليه وسلم ـــ وهى حجة فى رأيى لمجوزى التوسل وليست حجة عليهم .

وانـــى لاأضـــيق ذرعـــا بـــاختلاف وجهـــات النظـــر فـــى فهـــم المســـائل الدينيـــة الفرعيـــة . لكنـــى أضـــيق ذرعـــا . بـــل احـــزن اشـــد الحـــزن حـــين يكفـــر المســـلمون بعضـــهم بعضـــا ، اســـتنادا لمثـــل هـــذه الخلافـــات الجزئيـــة ، فكيـــف يجـــوز لمســـلم أن يكفـــر مـــن يـــؤمن بـــالله ورســـوله وملائكتـــه وكتبـــه واليـــوم الآخـــر ، والقضـــاء خيـــره وشـــره ، ويصـــلى الـــى القبلـــة لمجـــرد أنـــه يـــزور أوليـــاء الله ، أن يتوســـل بهـــم متبركـــا بصـــالحى الأمة ، وفى المتوسلين والزائرين علماء راسخون فى العلم ويرمون بالكفر ، وأسـال الله الرشـاد لأهـل الاسـلام ، وأسـال الله أن يجنـبهم التعصـب الاحمق ، الذى يبعدهم عن سواء السبيل ، وما يجرى على السنة بعض العوام من الفاظ لاتتفق مع آداب الشريعة ، فاننا نعلمهم ولا نكفرهم ، لانهم بحمد الله مؤمنين ايمان العجائز الصافى ..

٩ ـ ايمان الصوفية بالكرامات :

يـــؤمن الصـــوفية بكرامـــات الأوليـــاء ، وهـــى مـــن بـــاب تأييـــد الله لأوليائـــه الصـــادقين ، ويقولـــون ان كرامـــات الأوليـــاء معجـــزات لمولانـــا رســـول الله ـــ صـــلى الله عليـــه وســـلم . لأن الله يكـــرم وليـــه بخـــوارق العادات لأنه متابع لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم .

والقـــرآن الكـــريم ، أثبـــت الكرامـــات لأوليـــاء الله فـــى مثـــل قصـــة عرش بلقيس فى قوله تعالى " قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك ، فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربى " .

وقصـــة مـــريم ـــ عليهـــا الســـلام ـــ " كلمـــا دخـــل عليهـــا زكريـــا المحراب وجد عندها رزقا ، قال يامريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب ".

وقصة أصحاب الكهف الذين قال الله تعالى فيهم : ((ولبثوا فى كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا)) ولما سئلوا كم لبثتم ((قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم)) ، وفى ذلك يقول بعض الصوفية :

ان المحبين فى شغل لسيدهم
كفتية الكهف لا يدرون كم لبثوا

وكان لسادتنا الصحابة كرامات لا تحصى ، فقد رقى سيدنا ابن مسعود الرجل الملدوغ بفاتحه الكتاب فشفى لوقته ، وكان ذلك من الهام الله له ، وشرب سيدنا خالد بن الوليد السم الزعاف فلم يضره ، وأسلم بسبب ذلك رهبان الدير الذين سألوه آية من الآيات حين دعاهم للاسلام ، وسيدنا عمر بن الخطاب نادى سارية وهو فى بلاد فارس ، وقال له سارية : الجبل . . الجبل ، فسمعه سارية وأخذ حذره من الأعداء ، وجاء سيدنا عبد الله بن عباس بمولوده لسيدنا على بن أبى طالب فقال ما سميته ؟ قال : وهل يجوز لى أن أسميه قبل أن تسميه أنت ، فسماه عليا وقال له أهلا أبا الأملاك ، فكان من نسله خلفاء بنى العباس ، وغير ذلك كثير وكثير جدا .

وكذلك رأيت من أخوانى فى الله شيئا كثيرا من الكرامات ، على أنى أود أن أنبه الى أن السادة الصوفية مع ايمانهم بكرامات الأولياء ، لا يرونها لازمة فى اثبات الولاية ، بل يقولون ان أهم كرامة للولى هى الاستقامة على اتباع الكتاب والسنة ، وهى بما تعرف عندهم بالكرامة المعنوية ، أما الخوارق التى أشرت اليها فيما تقدم ، فتسمى عندهم الكرامات الحسية ، وكملة الرجال من الصوفية يستحيون منها ، ولا يودون أن تظهر على أيديهم الا لضرورة ، قالوا للامام المرتعش : فلان يمشى على الماء قال : عندى من مكنه الله من مغالبة هواه ، خير من الذى يمشى على الماء .

وتعلو همة الصوفية ، فتتعلق بالله وحده - سبحانه - حتى ان الامام الشبلى لما سمع تاليا يتلو قوله تعالى ((منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة)) ، صرخ وقال وأين طالب الله ؟ فانظر يا أخى رعاك الله ، كيف راى أن يرفع همته عن طلب الجنة الى الخالق ، وكان شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى - رضى الله عنه - يقول فى دعائه : وأسألك الجنة وما أسألك اياها إلا لأنها مكان قربى منك ، كما كانت المحبة الولهانة السيدة رابعة العدوية تقول :

ليس قصدى من الجنان نعيما غير انى أحبها لأراكا

١٠-السلبية فى المجتمع :

يظن بعض المعترضين ، ان اشتغال السادة الصوفية بالطاعة ومحبة الله ، يدعوهم الى اعتزال الحياة الدنيا ، وليس ذلك صحيحا ، وقد بينا فيما تقدم بعض المواقف الرائعة التى أثبتها تاريخ الاسلام لبعض ائمة الصوفية ، وانما يقع المعترضين فى ذلك الخطأ لأنهم يرون بعض الأدعياء يدعون أنهم صوفية ، وهم عالة على المجتمع ، وعلة فيها ، وليسوا حجة على الصوفية ، لأن الصوفى يقوم بحق دنياه وأخراه بهمة لا تعرف الكسل كما قبل :

فلا هو فى الدنيا مضيع نصيبه ولا عرض الدنيا عن الدين شاغل

وكذلك كان السادة الصحابة ، فقد كانوا عبادا فى ليلهم وخلواتهم ، وأسودا فى نهارهم وغزواتهم ، ولا مطمع لأحد ان يحفظ دينه ودنياه فوق ما فعلوا ، أو يصل الى مثل ما وصلوا ، فقد سعدوا بصحبته - صلى الله عليه وسلم - ولا شرف أعلا من شرف الصحبة ، التى جعلتهم فى الصف الأول بقلوبهم مع الله .

١١- الحلول والاتحاد :

طعن بعض أهل العلم على الصوفية ، بأنهم خرجوا عن التوحيد الصحيح ، وقالوا بالحلول والاتحاد ، واستندوا فى طعنهم عليهم الى ما ذهبت اليه طوائف زائغة عن الاسلام وتدعى أنها صوفية ولا يعنينا من أمرهم شئ ، أو الى كلمات اشتبهت على غير الصوفية وحاسبوهم على ظاهرها والله يأخذ بالنيات لا بالظواهر .

ولأهمية هذه المسألة ، واتصالها بأعز ما يملك المسلمون وهو الايمان بالله تعالى وتوحيده سأتعرض الى المسألة بشئ من الشرح .

الاتحاد حيث ورد فى كلام الصوفية المتمسكين بالكتاب والسنة انما يقصدون به ، فناء مراد العبد فى مراد الله تعالى ، كما يقول سيدى على وفا – رضى الله عنه -:

وعلمك ان كل الأمر أمرى والمعنى المسمى باتحاد

ويرمى بعض أعداء التصوف سيدى محيى الدين بن عربى وهو شيخ التصوف الاكبر بالحلول والاتحاد ، مع أنه يقول فى كتابه الفتوحات الملكية ((باب ٢٥٢))ما نصه :

وأعظم دليل على نفى الحلول والاتحاد ، الذى يتوهمه بعضهم أن تعلم عقلا أن القمر ليس فيه من نور الشمس شئ ، وان الشمس ما انتقلت اليه بذاتها ، وانما كان القمر مجلاها ، فكذلك العبد ليس فيه شئ من خالقه ولا حل فيه .

وقال رضى الله عنه – شعرا :

ودع مقالة قول قال عالمهم

بأنه بالاله الواحد اتحدا

الاتحاد محال لا يقول به

الا جهول به عن عقله شردا

وعن شريعته وعن حقيقـــته

فاعبـــد الهـــك لا تشـــرك بـــه أحـــدا

ويقـــول العـــارف بـــالله ســـيدى مصـــطفى البكـــرى فـــى نفـــى الحلـــول والاتحـــاد (يراجـــع كتابـــه الســـيوف الحـــداد فـــى أعنـــاق أهـــل الزندقـــة والالحاد – ص ٦٨) :

دعوى الحلول والاتحاد جـهالة

والوصـــــــل ثـــــــم الفصـــــــل جـــــــل الله

والحق نزه عن خطور خـواطر

بالبـــــــال خطـــــــرت تعـــــــالى الله

واتبع شريعة أحمد خـير الورى

مـــــن حـــــاد عنـــــه ربنـــــا ارداه

واليـــك مـــا قالـــه الامـــام أبـــو الحســـن النـــورى – رضـــى الله عنـــه – أمـــا القـــرب بالـــذات فتعـــالى الله الملـــك الحـــق عنـــه ، فانـــه يتقـــدس عـــن الحـــدود والاقطـــار ، والنهايـــة والمقـــدار ، مـــا اتصـــل بـــه مخلـــوق ، ولا انفصـــل عنـــه حـــادث مســـبوق ، جلـــت الصـــمدية عـــن قبـــول الفصـــل والوصل .

فقـــرب هـــو فـــى نعتـــه محـــال ، وهـــو تـــدانى الـــذوات ، وقـــرب هـــو واجـــب فـــى نعتـــه وهـــو قـــرب بـــالعلم والرؤيـــة ، وقـــرب وهـــو جـــائز فـــى وصـــفه يخـــص بـــه مـــن يشـــاء مـــن عبـــاده ، وهـــو قـــرب الفضـــل بـــاللطف . وقـــرب الفضـــل بـــاللطف هـــذا هـــو مقـــام فـــى التصـــوف ، يذوقـــه الواصـــلون اليـــه ، ولا يعبـــرون عنـــه بألفـــاظ ، وهوالمقـــام الـــذى قـــال عنه الامام الغزالى – رضى الله عنه – حين وصل اليه :

فكـان مـا كـان ممـا لسـت أذكـره فظـن خيـرا ولا تسـأل عـن الخبـر

وقـــال ســـيدى أبـــو الحســـن الشـــاذلى عنـــه : أمـــا طريـــق الخاصـــة فطريق مسلوك تضمحل العقول فى أقل القليل من وصفه .

الدس على سيدى محيى الدين وعلى كبار الائمة :

وقبل أن نترك هذا المجال ، أود أن أذكر للقراء الأعزاء ما نبه اليه سيدى عبد الوهاب الشعرانى – رضى الله عنه فى مقدمة كتابه القيم ((اليواقيت والجواهر)) من أن سيدى محيى الدين ابن عربى ، كان متقيدا بالكتاب والسنة ، ويقول كل من رمى ميزان الشريعة من يده لحظة هلك ، وجميع مالم يفهمه الناس من كلامه انما هو لعلو مراتبه ، وجميع ما عارض من كلامه ظاهر الشريعة ، وما عليه الجمهور فهو مدسوس عليه ، كما أخبرنى بذلك سيدى الشيخ ابو الطاهر المغربى نزيل مكة المشرفة ، ثم أخرج لى نسخة الفتوحات التى قابلها على نسخة الشيخ التى بخطه فى مدينة قونية فلم أر فيها شيئا مما كنت توقفت فيه وحذفته حين اختصرت الفتوحات ، ثم بين الامام الشعرانى – رضى الله عنه – ما وقع من دس الزنادقة فى حق الامام أحمد بن حنبل ، وشيخ الاسلام الفيروزبادى والامام الغزالى ، ثم قال رضى الله عنه – وكذلك دسوا على أنا فى كتابى المسمى بالبحر المورود ، جملة من العقائد الزائفة ، وأشاعوا تلك العقائد فى مصر ومكة نحو ثلاث سنين وأنا برىء منهما كما بينت ذلك فى خطبة لما غيرتها

مبادىء الصوفية :

أولا– محاسبة النفس أى على فرط منها فى كسر حدود الله ولا يقع الذنب الا من غفلتها عنه سبحانه ، والغفلة آفة من آفات النفس ، يقومها السادة الصوفية بكثرة الذكر فتزداد ايمانا تسكن به عن الهوى باذن منفسها سبحانه ، لأنها فطرت على حب الشهوات ، وأمرت بالابتعاد عنها ، وهذا هو ابتلاؤها ، وحكمته أن تخرج من حولها الى حول الله وقوته ، وتشعر بافتقارها اليه – جل جلاله – وتقدر فضله الكبير فى المغفرة الى لولاها لكنا من الخاسرين ، كما قال أبو البشر سيدنا آدم وزوجته سيدتنا حواء فى رجوعهما الى الله ، فى توبتهما من الخطيئة التى وقعت منهما

بالاكل من الشجرة المنهى عنها : ((ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين)) . فتاب الله عليهما وهدى ، ودل – سبحانه – بذلك المذنبين على باب توبته الذى محيت على أعتابه لخطيئة الأولى للانسان الأول .

ويقول سيدى أبو طالب المكى فى كتاب قوت القلوب : وان أردت أن تقوى على نفسك فاضعفها بقطع اسباب هواها ، وحبس مواد شهواتها ، والا قويت عليك وصرعتك ، فأول الملكة لها أن تحاسبها فى كل ساعة ، وتراقب حسبتها فى كل وقت ، وتقف عند كل همة من خواطرها ، فان كانت الهمة لله عز وجل سابقت الموت ، وبادرت الغوث فى امضائها ، وان كانت الهمة لغير الله تعالى سابقت وبادرت فى محوها لئلا تثبت .

ويسترد رضى الله عنه قائلا : كان الحسن اذا تلا قوله تعالى ((كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية)) قال يا اخواتى هى والله أيامكم هذه فاقطعوها بالجد والاجتهاد ولا تضيعوها ، فقد قالت النفس الأمارة بالسوء (يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله) يعنى أيام الدنيا التى ضيعت العمر فيها فخلت من الثواب والجزاء غدا .

وينصح السادة الصوفية المؤمن أن يحاسب نفسه مرتين مرة بعد صلاة الضحى ، لما مضى ليلته ، وما سلف من غفلته ، فان رأى نعمة شكر الله ، وان رأى بلية استغفر الله ، ومرة بعد الوتر وقبل النوم ، لما مضى من يومه من طول غفلته وسوء معاملته وقد قالوا ان السلف كانوا يحاسبون أنفسهم أشد من محاسبة الشريك لشريكه ، كما قالوا ان من علامة المقت أن يكون الانسان ذاكرا لعيوب غيره ، ناسيا لعيوب نفسه . .

ويقول امامنا على بن أبى طالب – رضى الله عنه – ((من استعظم خطيئة غيره نسى خطيئة نفسه)) ، كما قال – كرم الله وجهه –

((كل يوم لايعصى الله – عز وجل – فيه فهو لنا عيد)) ، ولا يستطيع المؤمن أن يتجنب معصية الله الا بمخالفة نفسه وهواه . .

ويقول السادة الصوفية ناصحين لنا : على العاقل أن يكون له أربع ساعات : ساعة يناجى فيها ربه – عز وجل – وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفكر فى صنع الله عز وجل ، وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب ، فان فى هذه الساعة عونا له على الطاعات .

وكان الامام سهل التسترى – رضى الله عنه – يقول: لا يبلغ العبد منازل الصديقين حقيقة حتى يكون فيه هذه الأربع ، أداء الفرائض بالسنة ، وأكل الحلال بالورع ، واجتناب النهى فى الظاهر والباطن ، والصبر على ذلك الى الممات .

وكان سيدنا عمر – رضى الله عنه – اذا تلا قوله تعالى : ((ان اذين قالوا ربنا ثم استقاموا)) ، قال : استقاموا والله لربهم ولم يراوغوا روغان الثعالب .

ويقول السادة الصوفية ان من صفة الصوفى أن يكون أكله فاقة ، ونومه غلبة ، وكلامه ضرورة ، ومن سهر بالليل حبا فى حبيبه لم يخالفه بالنهار ، فانه أسهره بالليل فى خدمته .

ويقولون : تعلم الصمت كما تتعلم الكلام ، فان يكن الكلام يهديك ، فان الصمت يقيك ، ولك فى الصمت خصلتان : تدفع به جهل من هو أجهل منك ، وتعلم به علم من عو أعلم منك ، ويذكرون فى هذا المقام الحديث الشريف : ((طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، وأنفق الفضل من ماله ، وأمسك الفضل من قوله)) . .

كما يذكرون قوله – صلوات الله وسلامه عليه – : ((كل كلام ابن آدم عليه لا له الا ثلاثة : أمر بمعروف ، أو نهى عن منكر ، أو ذكر الله عز وجل)) .

ثانيا – صدق الهمة فى طلب الله :

يرى السادة الصوفية أن طالب ربه يجب أن يصدق فى طلبه ، ويخلص النية فى عمله ، فيقصد به وجه الله ، ويكون ذا همة فلا يكل ولا يمل ، ويقولون طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب ، ويستندون الى الخبر ((ليس الايمان بالتحلى ، ولا بالتمنى ، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل)) .

ويقولون ان بعض السلف الصالح كتب الى أحد أبناء الدنيا يعظه . أخبرنى عن هذا الذى تكدح فيه وتحرص عليه من أمر الدنيا هل بلغت فيه ما تريد ، وأدركت ما تتمنى ؟ فقال لا والله ، فقال أرأيتك هذا الذى أنت حريص عليه لم تنل منه ما تريد ، فكيف تنال من الآخرة وقد أعرضت عنه وصرفت عنها ، فما أراك تضرب الا فى حديد بارد .

ثالثا – ذكر الموت :

يقول السادة الصوفية ان الله خوف الكافة فقال – تعالى – : ((حتى اذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت)) ، ثم أجابه فقال كلا وحققق قوله تعالى فقال : ((انها كلمة هو قائلها)) . ونهى المؤمنين نهيا صريحا عن مثل هذه الحال فقال: ((وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى الى أجل قريب فأصدق – أى بالمال – وأكن من الصالحين)) – أى بالأعمال ، ويروون عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قوله : هذه الآية أشد شىء على أهل التوحيد ، لأنه لا يتمنى التأخير والرجوع الى الدنيا أحد له عند الله خير فالآخرة .

وقد وقف مولانا الامام أبى عبد الله الحسين -رضى الله عنه - على المقابر يوما فاتعظ ووعظنا بالموت قئلا :

ناديت سكان القبور فاسكتوا

فأجابنى عن صمتهم ترب الحشا

قالت أتدرى ما فعلت بساكنى

مزقت لحمحمو وخرقت الكسا

وملأت أعينهم ترابا بعد ما

كانت تأذى بالقلبل من القذى

أما العظام فاننى مزقتها

حتى تباينت المفاصل والشوى

فقطعت ذا من ذا ومن هذا كذا

فتركتها مما يطول بها البلى

وكان نقش الخاتم الذى يلبسه سيدنا عمر - رضى الله عنه - ((كفى بالموت واعظا)) .

وقد علمنا مولانا رسول الله – صلى الله عليه وسلم - أن الحياء من الله يوجب على المؤمن ان يحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى ، ويذكر الموت والبلى ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء .

وفى وصية سيدنا أبى بكر لسيدنا عمر – رضى الله عنهما - : الحق ثقيل وهو مع ثقله مرىء ، والباطل خفيف ، وهو مع خفته وبىء ، فاذا حفظت وصيتى لم يكن غائب أحب اليك من الموت وهو مدركك ، وان ضيعت وصيتى ، لم يكن غائب أبغض اليك من الموت ولن تعجزه .

رابعا – التواصى بالحق والتواصى بالصبر :

يتواصى لسادة الصوفية فيما بينهم بالحق ، كما يتواصون بالصبر ، وقد علمنا الله سبحانه أن من ترك الحق والصبر من بنى الانسان كان خاسرا عند ربه ، فقال تعالى : ((والعصر ان الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر)) .

والصبر عندهم محمود فى جميع صوره ، من صبر على الطاعة ، وصبر على المعصية ، وصبر على البلاء ، لكنهم لا يرضون الصبر عن الله ، لأن مبدأهم منه ومنتهاهم اليه ، ويقولون ان المحب لله لا يسكن حنينه وأنينه حتى يسكن مع محبوبه ، ومن أقوالهم :

ليس داء المحب داء يداوى انما برؤه لقاء الحبيب

ولهذا يراعون أنفاسهم مع الله ، ويؤثرونه تعالى على ما سواه – رضى الناس عن ذلك أو كرهوا – كما يقول الشهيد الحلاج :

والله ما طلعت شمس ولا غربت
الا وحبك مقرون بانفاسى
ولا جلست الى قوم احدثهم
الا وانت حديثى بين جلاسى
مالى وللناس كم يلحوننى سفها
دينى لنفسى ودين الناس للناس

ويقول أيضا رضى الله عنه :

يا لائمى فى هواه كم تلوم فلو
عاينت منه الذى عاينت لم تلم
للناس حج ولى حج الى سكنى
تهدى الاضاحى وأهدى مهجتى ودمى
يطوف بالبيت قوم لا بجارحة
بالله طافوا فأغناهم عن الحرم

أمـــا أســـتاذى العـــارف بـــالله ســـيدى الشـــيخ علـــى عقـــل فيقـــول : الهامـــا فيمـــا نقلنـــاه عنـــه وهـــو ينشـــده ارتجـــالا مـــن فـــيض الله عليـــه :

لاتـحارب بـالـعزل قـلب محـب
عـــــالج الشـــــوق عمـــــره ولهانـــــا

وتلـطف بـه فـقد حـكم الشوق
عليـــــه فلـــــن يفيـــــق جنانـــــا

اعـذرونى أو اعـذلونى فـانى
لســـت اخشـــى المـــلام مـــن حيـــث كانـــا

انمـا اللـوم فـى المـحبة عندى
لا يزيـــــد المحـــــب الا افتتانـــــا

جـرب الـحب مثـلما جرب العاشق
تلـــــق المـــــلام يـــــذكى هوانـــــا

قـد رضـينا بـالله لا بسـواه
مـــــا لقينـــــا لمـــــا رضـــــينا هوانـــــا

ويقول أيضا :

وقفت على نجوى الاله جوانحى
لـــــذلك قلبـــــى منـــــزل كلـــــه ذكـــــر

واخليت قلبى من مناجاة غيره
فأصـــــبح طـــــودا لا يزلزلـــــه الغيـــــر

أسارع مشتاقا وأسكت هائما
وأنطلـــــق اجـــــلالا ومـــــا عـــــاقنى ســـــير

ففى صحوتى شوق وفى غفوتى هوى
وفـــــى مشـــــيتى علـــــم وفـــــى وقفتـــــى ســـــر

ولـــه فـــى هـــذا المقـــام كـــلام كثيـــر يفـــاخر بـــه عصـــرنا عصـــور التصـــوف الزاهـــرة وان شـــئت المزيـــد فـــارجع اليـــه فـــى ديـــوان الهامـــه المســـمى : السـمو الروحـــى فـــى الادب الصـــوفى وقـــد أشـــرنا اليـــه فيمـــا تقـــدم . ويرشـــدنا الســـادة الصـــوفية الـــى أن الصـــبر علـــى العافيـــة ، أكبـــر درجـــة مـــن الصـــبر علـــى الـــبلاء ، ويقصـــدون بالصـــبر علـــى العافيـــة ، لا يبطـــر العبـــد بمـــا قـــد ينالـــه فـــى الـــدنيا مـــن المـــال أو الصـــحة أو الجـــاه ، بـــل يرعـــى ربـــه ويرضـــيه ســـبحانه فبمـــا آتـــاه مـــن كـــل ذلـــك ابـــتلاء وامتحانـــا ، وقـــد مـــر عليـــك مـــا قـــالوه فـــى الزهـــد ، لـــيس الزهـــد أن تتـــرك الـــدنيا مـــن يـــدك وهـــى فـــى قلبـــك ، بـــل الزهـــد أن تتركهـــا مـــن قلبك وهى فى يدك .

وهـــم يقولـــون ان صـــحابة رســـول الله صـــلى الله عليـــه وســـلم كســـبوا المـــال وانفقـــوه طيبـــة نفوســـهم فـــى مرضـــاة الله ، فحققـــوا نصـــحهم بـــه ســـبحانه فـــى قولـــه الكـــريم (وأنفقـــوا ممـــا جعلكـــم مســـتخلفين فيـــه) فتصـــرفوا فـــى الامـــوال تصـــرف الخـــازن الامـــين ، فكانـــت الامـــوال فـــى ايـــديهم ولـــم تشـــح بهـــا انفســـهم علـــى مـــن ملكهـــم اياها .

ويقـــول الســـادة الصـــوفية : مـــن صـــدق فـــى زهـــده ، أتتـــه الـــدنيا راغمـــة ، كمـــا يقولـــون : أن الله يعطـــى الزاهـــد فـــوق مـــا يريـــد ، ويعطـــى راغب درن ما يريد ، ويعطى المستقيم موافقة ما يريد .

أمـــا أمامنـــا أحمـــد بـــن حنبـــل فيقـــول : أن الزهـــد علـــى ثلاثـــة اوجـــه : الاول تـــرك الحـــرام وهـــو زهـــد العـــوام ، والثـــانى تـــرك الفضـــول مـــن الحـــلال وهـــو زهـــد الخـــواص ، والثالـــث تـــرك مـــا يشـــغل العبـــد عـــن الله تعالى وهو زهد العارفين .

وقـــد وقـــع بـــين ابـــن بشـــار الفقيـــه ، والامـــام الشـــبلى الصـــوفى حـــوار بـــديع ، فقـــد كـــان ابـــن بشـــار مـــع غيـــره مـــن فقهـــاء عصـــره ، منكـــرين علـــى صـــوفية زمـــانهم ، ومـــنهم الامـــام الشـــبلى ، ثـــم بـــدا لابـــن بشـــار

أن يلتقى بالامام الشبلى ، ويتذاكر معه فى شئ من العلم ، فلما التقى به قال للامام الشبلى : كم فى خمس من الابل ؟ . فسكت الشبلى فكرر ابن بشار السؤال ، فقال الامام الشبلى : تريد زكاتها ، قال نعم . قال فى واجب الشرع شاة ، وفيما يلزم أمثالنا كلها . فقال ابن بشار : ألك فى ذلك امام . قال نعم أبو بكر الصديق ، خرج عن كل ماله فى سبيل الله ، ولما سأله مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما الذى أبقيت لعيالك ؟ قال أبقيت الله ورسوله .

فذهب ابن بشار الى زملائه الفقهاء متغير الوجه ، وقال لهم ذهب الصوفية بالخير كله ، وأضعنا عمرنا فى المجادلات .

خامسا – التحلى بمكارم الاخلاق :

يقول السادة الصوفية أن التصوف أخلاق ، فمن زاد عليك فى الخلق ، فقد زاد عليك فى التصوف .

وقد اتصف السادة الصوفية بأحسن الاخلاق وأزكاها ، لانهم تأسوا فى مسلكهم بمولانا رسوا الله صلى الله عليه وسلم ، وقد نال من ربه أعظم شهادة فى الخلق الكريم فى قوله تعالى : (وانك لعلى خلق عظيم) .

وقد سئلت مولاتنا عائشة عن خلق مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت فى روعة علمية : كان خلقه القرآن ، ومن ذلك نعلم انه صلى الله عليه وسلم ائتمر بأوامر القرآن ، وانتهى بنواهيه ، فكمل خلقه مع ربه ومع المؤمنين .

وكان صلى الله عليه وسلم بالمؤمنين رؤوفا رحيما، فمن تأسى به صلى الله عليه وسلم امتلأ قلبه رحمة بأخوانه المؤمنين ، يحب لهم ما يحب لنفسه ، ويكره لهم ما يكره لنفسه ، ولذلك جاء

فى الحديث الشريف (لا يؤمن أحدكم – أى لا يكمل ايمانه – حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه) .

وهذا الحديث الشريف قاعدة عظيمة من قواعد الدين ، وقد اتفقت الاخلاق والعوائد والشرائع والاحكام على أن مكارم الاخلاق منحصرة فى تلك القاعدة العظيمة ، ولا عجب فقد قامت الاخوة بين المؤمنين بأمر الله (انما المؤمنون أخوة) ، والاخوة تقتضى التعاطف . والترحم . والتعاون . والمؤمن الكامل لا يقتصر على الكف عن الشر ، بل يفعل الخير ما استطاع اليه سبيلا ، لان الاستقامة تنهى عن الشر ، والصلاح يأمر بالخير .

وفيما أثنى به سبحانه على سادتنا الصحابة قوله تعالى : (رحماء بينهم) . فقد قال فى معناها مولانا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : يدعو صالحهم لطالحهم ، وطالحهم لصالحهم .

ويروى السادة الصوفية فى مكارم الاخلاق ، أن جنديا قال لسيدى ابراهيم بن ادهم : اين العمران ؟ فأشار سيدى أبن ادهم الى المقابر ، فظن الجندى انه يهزأ به فضربه فشجه ، فطأطأ سيدى ابراهيم رأسه وقال للجندى : اضرب رأسا طالما عصى الله ، فقال الناس للجندى : هذا ابراهيم ابن أدهم زاهد خراسان ، فانكب الجندى على رجليه يقبلهما ويعتذر اليه ، فقال له سيدى ابن ادهم رضى الله عنه : ((والله ما رفعت يدك من ضربى ، الا وانا أسال الله لك المغفرة ، لانى علمت أن الله يثيبنى على ما فعلت بى ، ويؤاخذك على ما فعلت ، فاستحييت أن يكون حظى منك الخير وحظك منى الشر)) .

ومن آداب السادة الصوفية انهم يتأذون مما يتأذى منه المسلمون ، ويستندون فى ذلك الى الحديث الشريف (من لم يحمل هم المسلمين فليس منهم) ، ويحكون ان حريقا وقع فى

السوق ، فخرج السرى السقطى يطمئن على دكانه فى قطع من الليل ، فاستقبله قوم فقالوا : يا أبا الحسن ، احترقت دكاكين الناس الا دكانك ، فقال الحمد لله ، ثم تفكر فى ذلك فقال : قلت الحمد لله فى سلامة مالى وهلكت أموال اخوانى المسلمين ، فتصدق بجميع ما كان فى دكانه كفارة لكلمته هذه ، وكان يقول قلت كلمة فأنا استغفر الله منها منذ ثلاثين سنة ، ولا تنس أن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال امتى ولم يقل نفسى ، ووجهنا الى ان نكون امة واحدة ذات جسد واحد فقال صلى الله عليه وسلم ((مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)) .

ويقولون ان السنة النبوية حثت على تعميم الدعاء للمسلمين ، لرياضة نفوسهم على التراحم والتماسك ، ويقولون ان الله علمنا ان نقول فى فاتحة الكتاب (اياك نعبد واياك نستعين) فلا يقول المؤمن ولو كان منفردا اياك أعبد واياك أستعين ، وذلك لنكون مع جماعة المؤمنين ، وتحصل لنا بركة الجماعة . وكان الامام احمد ابن حنبل يقول : لو كان لى دعوة مستجابة ، لدعوت للوالى بصلاح الحال ، لان فى صلاحه صلاح الرعية .

ويقول الامام زروق رضى الله عنه : أصول الخير ثلاثة : التواضع وحسن الخلق والنصيحة . فالتواضع تتبعه ثلاث : الانصاف من نفسك ، وترك الانتصاف لها ، وخدمة المؤمنين .

وحسن الخلق تتبعه ثلاث : العدل فى الرضا والغضب ، والقصد فى الفقر والغنى ، والخشية فى السر والعلانية .

والنصيحه تتبعه ثلاث : العمل الصالح ، والعلم الصحيح ، واتباع الحق فى كل حال .

ويرشدنا السادة الصوفية الى الحديث الشريف ((لا يكمل ايمان أحدكم حتى يكون فيه ثلاث خصال : من اذا غضب لم يخرجه غضبه عن حق ، واذا رضى لم يدخله رضاه فى باطل ، اذا قدر لم يتناول ما ليس له)) .

خصال صوفية

وللسادة الصوفية خصال خير ، كلها قائمة على طاعة الله ومرضاته وايثاره سبحانه .

طلب العلم لله

انهم حين يطلبون العلم ، لا يقصدون العلم للعلم كما يقول الناس فى زماننا ، انما يطلبونه ليعملوا به ، وليرضوا الله فيه فترق قلوبهم ، وتقوى أرواحهم فى جنب الله ، ويقول السادة الصوفية أنه حين مات أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : انى لا حسب انه ذهب بتسعة أعشار العلم فقيل : تقول هذا وفينا جلة الصحابة ، بل ليس أعنى العلم ، الذى تريدون ، انما اعنى العلم بالله تعالى . فجعل العلم بالمعلومات غير حقيقة العلم ، ولذلك فرق السادة الصوفية بين العلماء الربانيين وبين أوعية العلم كما مر عليك من قبل ، ويقول سيدى ابراهيم بن أدهم رضى الله عنه منبها الى ان تكون العناية بالموضوع اكبر من العناية بالشكل : اعربنا فى الكلام فلم نلحن ، ولحنا فى الاعمال ، فيا ليتنا لحنا فى الكلام وأعربنا فى الاعمال . ومن حكم العارفين قولهم : لا تاخذ العلم الا ممن يعمل به ، كما يقولون : لا يعرف ما نقول الا من اقتفى اثرالرسول .

٢- قلة الأكل وكثرة السهر

يرى السادة الصوفية ان قلة الاكل تعاون على صفاء الروح ، لا على اضعاف شهوة الجسد . ويقولون ان اول بدعة حدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الشبع ، ولذلك يحذرون البطنة وبها مفسدة للجسد والروح معا ، كما أنها مدعاة لكثرة الشرب ، وكثرة الشرب مدعاة لكثرة النوم ، وكثرة النوم تورث الغفلة ، وهم يسمرون أكثر الليل لانه أهدأ وأعون على الطاعات ، ومن أقوالهم فى ذلك :

سهر العيون لغير وجهك ضائع وبكاؤهن لغير فقدك باطل

ومما نصح به لقمان الحكيم أبنه : يا بنى لا يكن الديك أكيس منك ينادى بالاسحار وانت نائم .

٣- مراعاة الوقت

يحرص السادة الصوفية على مراعاة الوقت ، بحيث لا يضيع فى غير نفع دنيوى أو أخروى ، ويقولون ليس للعاقل ان يكون مشغولا الا فى ثلاث : مرمة لمعاش أومرمة لمعاد ، أو لذة فى غير محرم .

ويقول سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : أوصانى حبيبى فقال (لعله يقصد شيخه ، وكان فى مبدأ أمره تلميذ للعارف بالله سيدى عبد السلام بن بشيش رضى الله عنه) : لا تنقل قدميك الاحيث ترجو ثواب الله ، ولا تجلس الا حيث تأمن من معصية الله ، ولا تصحب الا من تستعين به على طاعة الله ، ولا ولا تصطف لنفسك الا من تزداد به يقينا .

٤- دعاء الله بلسان الحاجة :

يرى السادة الصوفية أن يدعو المؤمن ربه بلسان الحاجة والافتقار اليه سبحانه ، فيتجهون ، عند الدعاء اليه تعالى بقلوب منكسرة فى الطلب ، قوية اليقين فى الاجابة ، ويقول فى ذلك العارف بذلك سيدى ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه :

ففى افتقارى وتسألى ومد يدى
أقوى دليل على ان تقضى الاربا
لو لم تردنى لما أرجو وآمله
من فيض جودك ما علمتنى الطلبا

ويقول شيخى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل فى الهامه رضى الله عنه :

كلما قلت يا الهى شربا
أ جد البحر زائد الفيضان
واذا ما اليه مدت يمينى
فالينا مدت لربى يدان

٥- الرضا بالمقدور :

يرضى السادة الصوفية بمواقع المقدور ، ويسلمون لربهم كل التسليم فيما جرت به أحكامه ، وهم لذلك لا يضجرون ولا يشكون ، وكان مولانا الامام ابو عبد الله الحسين رضى الله عنه يقول : نحن أهل البيت ، نسأل الله فيعطينا ، فاذا أراد ما نكره فيما يحب رضينا . ويعلمنا شيخ التصوف الاكبر سيدى محيى الدين بن العربى فيقول : عطايا الله كلها حسنة ، فما وافق هواك جعلته حسنا وما خالفه جعلته شرا ، قل كل من عند الله .

ويقـــول العـــارفون : اذا خيـــرك الله فـــى شـــئ فايـــاك أن تختـــار وفـــر مـــن اختيـــارك الـــى اختيـــاره ، لانـــك جاهـــل بالعواقـــب . كمـــا يقولـــون : اذا منعـــك لـــم يمنعـــك مـــن بخـــل ، وانمـــا منعـــك ليعطيـــك . ولكـــن لا يفهـــم الا عطـــاء فـــى المنـــع الا صـــديق ، وممـــا قـــالوه فـــى ذلـــك شعرا :

وقضاء الاله احوط للناس
مـــــــن الامهـــــــات والآبـــــــاء

غير أن اليقين أضحى مريضا
مرضـــــا باطنـــــا شـــــديد الخفـــــاء

لو يصح اليقين ما رغب الراغب
الا الـــــــى مليـــــــك الســـــــماء

وعسير بلوغ هاتيك جدا
تلـــــك عليـــــا مراتـــــب الانبيـــــاء

٦- توقير مشايخهم وطاعتهم :

يـــوقر الســـادة الصـــوفية مشـــايخهم ، ويحســـنون بهـــم ظنـــا ، ويطيعـــونهم فـــى الله تعـــالى ، ويحســـنون آدابهـــم معهـــم ، فـــلا يرفعـــون الصـــوت فـــى حضـــرتهم ، ولا يســـبقونهم بـــالقول أو الـــرأى ، ويعملـــون بـــأوأمرهم واشـــاراتهم ، باعتبـــارهم ائمـــة ينوبـــون عنـــه صـــلى الله عليـــه وسلم فى الارشاد الى الله .

وكـــان ســـيدى المرســـى أبـــو العبـــاس رضـــى الله عنـــه اذا ذكـــر عنـــده شيخه ابو الحسن الشاذلى رضى الله عنه يقول :

لى ســـادة مـــن عـزهم
أقـــــــــداهم فـــــــــوق الجبـــــــــاه

ان لـــم أكـن منـــهم فلى
فـــــــى حـــــــبهم عـــــــز وجـــــــاه

ويستدل السادة الصوفية فى آدابهم مع شيوخهم بما كان من سيدنا موسى عليه السلام وسيدنا الخضر عليه السلام حين قال له (ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا) وبالحديث الشريف (من بايع اماما أعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه ان استطاع) .

واذا تقدم المريد لشيخ عارف بالله ، واستأذنه فى مبايعته ، فأجل الشيخ مبايعته ، يغتم المريد لذلك ، ويرمى نفسه بسوء الحال مع الله . لان الشيخ لم ير ببصيرته أنه أهل لان يطلب الله طلب الخواص من عباده .

فاذا أقبل الشيخ على المبايعة ، طابت نفس المريد ، واعتبر أن رضاء الشيخ من رضاء الله .

وفى هذه المناسبة حدث عنوان البصرى ، وكان شيخا قد قارب سنة المائة ، قال كنت أختلف الى مالك بن أنس سنين ، فلما قدم جعفر الصادق كنت أختلف اليه ، وأحببت ان آخذ عنه ، كما اخذت عن مالك ، فقال يوما انى رجل مطلوب ، مع ذلك لى أوراد فى كل ساعة من اناء الليل وأطراف النهار ، فلا تشغلنى عن وردى . وخذ عن مالك . واختلف اليه كما كنت تختلف . قان عنوان : فاغتممت من ذلك ، وخرجت من عنده ، وقلت فى نفسى : لو تفرس لى خيرا لما زجرنى عن الاختلاف اليه ، والاخذ عنه ، فدخلت مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلمت عليه ، ثم رجعت من الغد الى الروضة ، وصليت فيها ركعتين . وقلت أسألك يا رب ان تعطف على قلب جعفر ، وترزقنى من علمه ما أهتدى به الى الصراط المستقيم ، ورجعت الى دارى مغتما . ولم اختلف الى مالك بن أنس لما اشرب قلبى من حب جعفر ، لما خرجت من دارى الا الى الصلاة المكتوبة حتى عيل صبرى .

قال عنوان : فلما ضاق صدرى . قصدت جعفرا . فلما حضرت داره . وكنت عنده . وسلمت . أجلسنى فجلست . فأطرق مليا ثم رفع رأسه فقال : أبو من أنت ؟ . قلت : أبو عبد الله . قال ثبت الله كنيتك ، ووفقك يا ابا عبد الله . ما مسألتك ؟ قال عنوان : فقلت فى نفسى لو لم يكن لى من زيارته والتسليم عليه غير هذا الدعاء لكان كثيرا ، ثم رفع رأسه فقال : ما مسألتك ؟ قلت : سألت الله أن يعطف على قلبك ، ويرزقنى من علمك . وأرجو أن يكون الله قد أجابنى .

فقال : يا عبد الله ، ليس العلم بالتعلم ، وانما هو نور يقع على قلب من يريد الله تبارك وتعالى أن يهديه ، فان أردت العلم . فاطلب اولا فى نفسك حقيقة العبودية ، واطلب العلم باستعماله واستفهم الله يفهمك .

قال عنوان فقلت : أيها الشريف . فقال جعفر : قل يا أبا عبد الله . قلت : يا أبا عبد الله ماحقيقة العبودية ؟ قال : ثلاثة أشياء : ألا يرى العبد لنفسه – فيما خوله الله – ملكا ، ، ولا يدبر لنفسه تدبيرا ، وان يشتغل بما أمره الله تعالى . وينتهى عما نهى .

قال عنوان : فقلت يا أبا عبد الله أوصنى . فقال : أوصيك بتسعة أشياء . فانها وصيتى لمن يريد الطريق الى الله تعالى . والله اسأل أن يوفقك .

ثلاثة فى رياضة النفس ، وثلاثة فى الحلم ، وثلاثة فى العلم : فأما اللواتى فى الرياضة : فاياك أن تأكل ما لا تشتهيه ، فانه يورث الحماقة والبله ، ولا تأكل الا عند الجوع . واذا أكلت فكل حلالا ، ثم اذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((ما ملأ آدمى وعاء شرا من بطنه . فان كان ولابد . فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه)) .

فأمـــا اللـــواتى فـــى الحلـــم : فمـــن قـــال لـــك ان قلـــت واحـــدة ســـمعت عشـــرا ، فقـــل لـــه : ان قلـــت عشـــرا لـــم تســـمع واحـــدة . ومـــن شـــتمك فقـــل : ان كنـــت صـــادقا فســـأل الله أن يغفـــر لـــى . وان كنـــت كاذبـــا فاسأل الله أن يغفر لك . ومن توعدك فعده بالنصيحة والدعاء .

وامـــا اللـــواتى فـــى العلـــم : فاســـأل العلمـــاء مـــا جهلـــت . وايـــاك ان تســـألهم تعنتـــا وتجربـــة ، وايـــاك ان تعمـــل برايـــك ، وخـــذ بالاحتيـــاط فـــى جميـــع مـــا تجـــد اليـــه ســـبيلا ، واهـــرب مـــن الفتيـــا هربـــك مـــن الاســـد ولا تجعل رقبتك فى الناس جسرا .

قـــال عنـــوان : ثـــم قـــال قـــم عنـــى يـــا أبـــا عبـــد الله ، فقـــد نصـــحت لـــك . ولا تفســـد علـــى وردى ، فـــانى امـــرؤ ضـــنين بنفســـى ، والســـلام علـــى من أتبع الهدى .

* *

خـــاتمـــــة

هـــذا وأرجـــو ان أكـــون بنشـــر هـــذا الكتيـــب المـــوجز ، وقـــد عاونـــت الناشـــئين مـــن خـــلال تجربتـــى العمليـــة فـــى التربيـــة الصـــوفية ، ومـــن مطالعـــاتى للكتـــب الدينيـــة والصـــوفية ، فـــى التعـــرف بأيســـر العبـــارات وأوضـــحها الـــى منهـــاج الســـادة الصـــوفية ، ودحـــض الاعتراضـــات علـــيهم بالادلـــة الشـــرعية الدامغـــة ، مـــع توضـــيح مشـــرب التصـــوف وعلاقتـــه بالكتـــاب والســـنة ، وأدعـــو ربـــى بعـــد ذلـــك أن يـــرزق المطلعـــين عليـــه الصـــحبة الصـــالحة فـــى الـــدين ، لينتفعـــوا بصـــحبة الصـــادقين مـــن المرشـــدين الـــى الله تعـــالى ، بعـــد مـــا بينـــت لهـــم أن أخـــذ التربيـــة العاليـــة فـــى الـــدين مـــن أهلهـــا أمـــر محـــتم ، لمـــن اراد الآخـــرة وســـعى لهـــا ســـعيها وهـــو مـــؤمن ، والمـــرء ضـــعيف بنفســـه فـــى مقاومـــة هـــواه ، قـــوى باســـباب الهـــدى التـــى يســـوقها الله اليـــه علـــى يـــد شـــيخه ورجـــال سلســـلته ، وهم الذين قيل فيهم بحق :

جلت عن الوصـف ان تحصى مآثرهـم

على البواطـن قد دلت ظواهرهم

بطاعة الله فى الدنيـا مفاخـرهم

احبهـم واداريهـم واوثرهم

بمهجتـى وخصوصـا منهمو نفرا

فيـــافوز مـــن صـــحبهم فـــى الـــدنيا ، وانتفـــع بهـــم فـــى دينـــه . ودخـــل الجنة فى زمرتهم ، يوم يتحقق قوله تعالى :

((وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا ، حتى اذ جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ، وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنـــــــــــا الارض نتبـــــــــــوأ مـــــــــــن الجنـــــــــــة حيث نشاء فنعم أجر العاملين . وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين)) .

* * *